صالح مرسي



الاعمال الكاملة

كنت جاسوساً في اسرائيل

رأفت الهجان

الطبعة الثانية

٣

الجــزء الثـــالث

الفصل الأول

إطرق والحديد ساخن !

قالت السيدة هيلين سمحون ، وهى تستمع إلى تلك المرحلة من حياة الفتى ، إنها تشعـر بالإشفـاق ، لاعـلى الفتى ، ولكن على نفسها . . . فهى ربما قد التقت ببعض تلك الشخصيات أو الوجوه التى كان الفتى ينصب شباكه من حولها بشكل أو بآخر . . . وهى تعلم علم اليقين ، فليس الأمر فى حاجة إلى ذكاء أو استنتاج ، إن عزيز الجبالى لا يذكر أسماء أو وظائف حقيقية ، إنه يموه ويخفى ويدثر ويغلف الحقائق بما يحفظ لها أسرارها المكنونة حتى الأبد . . . لكنها فى النهاية بشر ، وهى لاتستطيع إلا أن تتخيل وتقارن بين مايقول عزيز ، وما رأته بعينى رأسها فى إسرائيل !

ولقد كان مارأته ـ بالقياس إلى مايذكره ويحكيه ـ مذهلا بحق !

قالت إن زوجها الراحل كان رجل أعمال مرموقا فى تل أبيب ، وأن مجتمعه ومحيطه ومعارفه وأصدقاءه جميعا ، كانوا يحترمونه احتراما شديدا ، ليس فقط ، بل إنها موقنة أنهم كانوا أيضا يحبونه حبا حقيقيا

الغلاف تصميم الفنان : عبد الغنى أبو العينين

صادقـا . . . وربما كان لشخصية الفتى الجذابة علاقة بهذا ، ولكن الغريب فى الأمر ، أنها حتى إذا ماستعادت ذكرياتها معه فى لقاءاتها فى إسرائيل ، لاتستطيع أن تتصور أو تتخيل أن هذا الرجل الذى كان يملأ الأسماع والأبصار ويحنو على الجميع ، من الممكن أن يكون حاملا لسر هائل كهذا الذى يحمله ، ولأعباء جسام كتلك التى قدر له أن يقوم بها تجاه وطنه وأمته . . . وهى فوق كل هذا وذاك ، ورغم كل ماعرفته وسمعته ، وإذا ماعادت بالذاكرة إلى الوراء ، لاتستطيع أن تتخيل أنه من الممكن أن يكون موضع شك من أحد !

قالت إنها تذكر حواراً دار ذات مرة بينه وبين أحد أصدقائه من رجال الأعمال ، وكان الصديق يعاتبه لأن شخصية عسكرية إسرائيلية ، مرموقة وذات شهرة عالمية ، كانت تشكو لهذا الصديق من أن السيد سمحون لايلبى دعواته التى تعددت ، كما أنه لايدعوه إلى تلك الحفلات الرفيعة المستوى التى كان يقيمها بين الحين والحين ، وأنها دهشت دهشة حقيقية ، بل ربما كان هذا من الأسباب التى اجتذبتها إلى الفتى دون أن تنتبه ، لأن رأفت تلقى العتاب فى بساطة وليس فى لامبالاة ، وأنه راح يعتذر بكلمات لامعنى لها . . . . وعندما انفردت به سألته ـ وكان حب الاستطلاع لديها أقوى من محاولتها تجنب التدخل فى شئونه الخاصة ، بل ربما كانت هى رغبتها فى أن تلتقى بتلك الشخصية الفذة وجها لوجه !! ـ سألته عن سر ابتعاده وعزوفه عن مقابلة صاحب هذه الشخصية ، فرد عليها الفتى مازحا :

«إن أية سهرة فى الدنيا لاتتسع إلا لنجم واحد !!»

قالها ضاحكا فضحكت معه وقد بدا لها منطقه معقولاً ، فلقد كان زوجها الراحل ، إذا ما وجد فى مكان ، كان هو ـ بالفعل ـ نجمه الساطع ، والشخصية التى يتودد إليها الجميع !

استمع عزيز الجبالى إلى حديثها باسما ، حتى إذا انتهت منه ، ذكر لها ببساطة اسم تلك الشخصية العسكرية الإسرائيلية التى كانت تتحدث عنها ، فضحكت تلك السيدة اللاهثة الأنفاس قائلة :

« كنت موقنة أنك تعرف »!

« لقد طلبت إليه فى إلحاح ـ وأنا أعلم أن الأمر مغر للغاية ـ أن يبتعد عنه تماما ! »

« لماذا . . . . وقد كان فى الاقتراب منه فوائد جمة ؟ ! »

اغتبط عزيز الجبالى عندما جاءه سؤالها ، وكان السبب فى غبطته ، هو ذلك الإحساس الذى يعطيه السؤال بالتعاطف مع مايطرح عليها من قضايا . . . ولذلك فلقد قال :

« إن الاقتراب من مثل هذه الشخصيات يمثل خطرا حقيقيا على من يقوم بعمل مثل هذا الذى كان يقوم به رأفت الهجان ، الذى وصل فى نهاية أيامه فى إسرائيل ، إلى تكوين الشبكة المثالية . . . كانت أعماله ـ كما تعرفين ـ قد اتسعت وتشعبت ولم تعد مقصورة على السياحة فقط ، وأصبح الفتى من رجال الاقتصاد المرموقين . إلى الحد الذى أعفى فه وطنه ـ خاصة بعد نكسة ١٩٦٧ ـ من دفع قرش واحد للصرف على هذه الشبكة التى كانت قد اتسعت وأصبحت مايشبه الأخطبوط الذى يمد أذرعه إلى كل مكان وكل نشاط داخل إسرائيل ! »

لمحت هيلين سمحون سحابة حزن على وجه عزيز ، بل لقد شكت فى أنها ربما لمحت فى عينيه بريقا يشبه بريق الدمع المتجمع خلف الجفون ، وعندما صمت الرجل احترمت صمته وشاركته إياه ، حتى قال :

« وصل به الأمر إلى حد أنه أراد أن يحول إلى وطنه نصيبه من أرباح شركاته وأعماله بحجة أن المال فى الأصل كان مال هذا الوطن !! »

ولم تستطع هيلين سمحون أن تحتمل أكثر من هذا ، فانفجرت الدموع من عينيها !

●●●

ولابد أن حصيلة الفتى من التجارب المريرة التى صادفته فى فجر شبابه ، قد أمدته بمعرفة عميقة بالنفس البشرية . . . ذلك أنه بالرغم من الرسائل المتتالية التى كانت تبعثها إليه السيدة « سيرينا أهارونى » المصرية الأصل ، لحضور السهرات فى بيتها فإنه لم يذهب لزيارتها قبل أن يدق جرس التليفون ذات مساء فى مكتبه . . . ماإن رفع السماعة حتى جاءه صوتها بالعربية ، وباللهجة المصرية بالذات ، وكان مرحا :

« بيقولوا إنك مستنى عزومة منى ؟! »

كان هذا صحيحا تماما ، فكل الذين حملوا إليه رغبتها فى حضوره بعض سهراتها ، كان يرد عليهم بقوله : إن هذا من دواعى سروره ، لولا أنها لم توجه إليه الدعوة بعد ! . . . وهو فى واقع الأمر ـ كان تواقا لمثل تلك الزيارة لأنه يعرف مدى الفائدة التى سوف يجنيها من وجوده

فى بيتها والالتقاء بأصدقائها . . . لذلك فما إن جاءته جملتها تلك عبر سماعة التليفون حتى هتف فى مرح وترحاب :

« أنا مش مستنى عزومة ، أنا مستنى إذن ! »

ولابد أن مجاملة الفتى قد أثلجت صدرها فلقد قالت على الفور :

« واحنا اذنا لك ياسيدى ! »

فى تلك الليلة عرف أنها تتحدث من الهستدروت ـ مركز نشاطها الرئيسى ـ وكان هو فى طريقه إليه كعادته فى أغلب الأمسيات قبل أن يبدأ سهرته . . . وهكذا اتفقا على اللقاء هناك ! . . . وهكذا ذهب الفتى وهو يشحذ كل ملكاته كى يقيم علاقة حميمة يصل بها إلى أقصى مايستطيع مع تلك الشبكة المهمة من المدنيين : علماء ، مهندسين ، أطباء ، أساتذة جامعة ، اقتصاديين ، سياسيين . . . الشرط الأول فى تحقيق غرضه ، هو السيطرة على سيرينا سيطرة تحولها إلى معبر آمن يقوده إليهم بها لايدع مجالا للشك فيه !

. . . .

. . . .

وجد الفتى أن الوسيلة المثلى للسيطرة على تلك السيدة المرموقة ، هى معرفة بعض أسرارها الخاصة التى تحرص على إخفائها عن المجتمع . . . علمته تجربته فى الحياة أن لكل إنسان نقطة ضعف أو سرا « خاصا » يحرص على إخفائه وينوء به صدره . . . ولم يكن من السهل على رأفت الهجان أن يستحوذ على ثقة سيرينا أهارونى ، لكنه وجد السبيل ـ كعادته ـ بالكثير من الصبر ، وبمعرفة راحت تتدرج من

« حياة كل يوم » إلى أدق أسرارها الخاصة . . . ولقد عرف ، وتأثر ، بل لقد أحب صحبتها ، وحققت له هذه السيدة واحداً من أعظم أحلامه يوم راحت تحكى له قصة حياتها !

●●●

كانت سيرينا أهارونى سيدة مجتمع بحق ، تعلمت فنون الضيافة منذ الصغر ، عندما كان أبوها ـ الموظف بأحد البنوك الأجنبية الكبيرة فى الإسكندرية ـ يستقبل فى بيته ، هو وزوجته ، مجموعة من الأصدقاء من رجالات المال وتجار القطن والمثقفين وأصحاب المراكز المرموقة فى العاصمة الثانية لمصر . . . رأت سيرينا كيف كان أبوها يجمع أصحاب المصالح المشتركة ، كما يجمع المضاربين ورجالات الأحزاب المتناحرة دون أن ينتمى إلا لمصالحه الخاصة . . . رأت منذ نعومة أظفارها كيف يمكن أن تدار الأمور وأن تدر تلك السهرات ربحا وفيرا ، فدربت على شئون الكبار دون جهد يذكر . . . وهى ، عندما فتحت بيتها فى تل أبيب لمثل تلك السهرات ، كانت فى واقع الأمر تستعيد ذكريات تلك الأيام ، بل ـ ربما ! ! ـ كانت تريد بمن تجمعهم حولها من رجال المال والأحزاب والمثقفين ، أن تعيش الماضى ، ولو فى الخيال ! !

والذى لاشك فيه أن رأفت الهجان استطاع أن يخلب لبها ، حتى لقد أصبح قاسما مشتركا فى معظم تلك السهرات ، كما أصبح كل منهما لصيقا بالآخر يحتمى به ، إلى درجة أن شائعة راجت فى تل أبيب فى منتصف عام ١٩٦١ ، تقول : إن زواجهما بات وشيكا بالرغم من أنها تكبره بعدد لابأس به من السنين !

ولقد فسر الفتى هذا تفسيراً لم يتنازل عنه لحظة ، وهو أنها كانت تحب مصر !

أفـرطت ذات ليلة فى الشراب عنـدمـا ثارت بعض المتـاعب فى حياتها ، فاعترفت له أنها لم تكن تريد الرحيل عن مصر ولم تفكر فى الهجرة إلى إسرائيل ، لكنها ـ فى تلك الأعوام التى سبقت حرب ١٩٤٨ بعـامـين أو يزيد قليلا ـ لم تكن تملك إلا الإذعان لقرار اتخذ بشكل غامض . . . علمت فجأة أنهم سوف ينتقلون إلى فرنسا ـ وكانت كلمة الهجرة فى ذلك الوقت غير واردة ـ بعد أن رقى والدها فى وظيفته ، وتقرر نقله من فرع البنك فى الإسكندرية ، إلى مقره الرئيسى فى باريس . . وكان طبيعيا أن يثلج هذا صدورهم وصدور الأصدقاء من أصحاب الملايين وتجار القطن والمضاربين على أسعاره فى بورصته الشهيرة الذين راحوا يتوددون إلى أبيها مؤملين أن يؤدى لهم خدمات خاصة إذا ماانتقل إلى العاصمة الفرنسية . . . وهكذا أحست أن سفرهم إلى باريس ليس سوى مرحلة ستكون بعدها عودة ، أو على الأقل زيارة . . . . لكنها فوجئت ، فور وصـول السفينة إلى مارسيليا ، بأنهم فى انتظار سفينة أخرى ستحملهم إلى فلسطين ! !

أحست سيرينـا أهارونى أنها أُختطفت وغُرر بها ، كما غُرر بعشرات الأصدقاء الذين ودعوا أباها واضعين فيه ثقتهم ، أحست أن ثمة قوى قاهرة تدفعها إلى الابتعاد عن البلد الذى ولدت فيه وأحبته وتركت فى عاصمته الثانية قلبها !

قالت للفتى ـ وقد أضناها الصراع ـ إن حبها الذى لم تستطع نسيانه

هو إسماعيل مذكور . . . ابن الجيران الذى تعلمت بين يديه أولى خطواتها فى الرقص ، وكانت ابنة ستة عشر ربيعا ، وعندما كان يصحبها مساء كل سبت إلى ذلك المرقص الشهير فى محطة الرمل - خلف سينما ماجيستيك - حيث تتحول ساحة الباتيناج فى مساء هذا اليوم من كل أسبوع ، إلى مرقص يضم عشرات الفتيات والفتيان من كل الأعمار والأديان دونما تفرقة أو إحساس بغربة . . . . هناك ، كانا يقضيان الساعات تلو الساعات فى الرقص ، لايملان ولايتعبان . . . . أكثر ماكان يميز حبيبها هو أنه كان شامخ الرأس كسهم يوشك على الانطلاق ، هو أسمر الوجه كبير التقاطيع . سكندرى السحنة ، خفيض الصوت ، عميق النظرة ، قليل الحديث ، وكما تعود على اصطحابها إلى ذلك المرقص مساء كل سبت ، تعود - فى شهور الصيف - أن يقضى معها يوم الأحد فى الرملة البيضاء . . . حيث كانا يستقلان « الكوتر » - قارب كبير مجهز يسع عددا من الركاب فوق العشرين - من باب الميناء رقم ستة إلى تلك البقعة المميزة فوق حاجز الأمواج فى ميناء الإسكندرية ، حيث كانا يجلسان فوق الصخور المتراكمة فيما بين الميناء من ناحية ، ومياه البحر وأمواجه من ناحية أخرى . . . يقضيان الوقت فى السباحة والتهام السندوتشات وشرب المثلجات ، يغنيان معا أو يشاركان الآخرين من حولهما فى الغناء !

كانت هذه أجمل سنى حياتها ، كان الحب بينها وبين إسماعيل مذكور ميثاقا صامتا ، لكنه يوم أن باح لها بحبه لأول مرة لم تستطع أن

تكبح جماح عواطفها ، فتعلقت بعنقه وراحت تمطر وجهه بالقبلات . . . فى تلك الليلة بدا لها حبيبها حزينا ، سألته عن سر حزنه فقال :

« علشان إنتوا مسافرين ياسيرى! »

هكذا كان يُدللها

« مين اللى قال لكم إننا مسافرين ؟ ! »

« بابا! »

« ومين اللى قال له ؟! »

« باباكى ! »

وكانت هذه هى المرة الأولى التى عرفت فيها سيرينا أهارونى أنها ستغادر مصر !

. . . .

. . . .

قال الفتى صراحة إنه كان ، كلما أضناه الشوق إلى وطنه ، يذهب إليها . . . وإنه فى تلك الليلة التى أفضت له فيها بسرها المكنون ، تمنى لو أنه استطاع هو الآخر أن يفضى إليها بحقيقة أمره !!!

ولم يكن فيما قالته سيرينا سر حتى الان لكن سرها جاءه بعد ذلك وقد سرى دفء الذكريات إلى المكان فأحال الجلسة بينهما إلى نوع من الأحلام دفعها إلى الإفضاء بحقيقة مأساتها !

قالت سيرينا أهارونى - بعد دقائق من الصمت احتست فيها كأسا وأشعلت سيجارة - إنها لم تستطع رغم هجرتها إلى فلسطين أن تنسى

إسماعيل مدكور . . . كان كل شىء فى حياتها قد انقلب رأسا على عقب واختلف بعنف أفقدها التوازن ، احتل أبوها مركزا مهماً فى أحد البنوك الإسرائيلية ، واستطاع بما له من خبرة وما كان يحمله من معلومات أن يحقق لإسرائيل الكثير مما كانت تحتاج إليه قبل إعلان قيامها وبعده . . . انساقت مع التيار فانضمت إلى اهاجاناه ، التقت بزوجها الراحل فأحبها وتزوجته لأنه كان لابد لها من أن تتزوج أو هكذا بدا لها الأمر . . . أعلن عن قيام دولة إسرائيل وأخذت الحياة بعد الحرب طابعا محموما . . . عندما قامت حرب ١٩٥٦ انضمت إلى جيش الدفاع الإسرائيلى كما ذهب زوجها إلى الجبهة فى سيناء . . . لم تكن تعرف أنه قتل فى هذه الحرب عندما ابتلاها قدرها بما لم يخطر لها على بال . . . كانت نشوة النصر المزيف قد خلبت لب الناس خاصة بعد أن جاءت أفواج الأسرى المصريين كى توضع فى المعتقلات !

« أقسم الفتى بأغلظ الأيمان أنها ذكرت كلمتى «النصر المزيف » وأنها كانت تعنيهما ، بل إنها ـ وقد رأت على وجهه علامات الدهشة ـ أعادتهما على سمعه كى تؤكدهما!! »

كان من نصيبها أن تخدَم فى معتقل « عتليت » الذى ضم ثلاث مجموعات من الأسرى المصريين : مجموعة من الجنود ، وأخرى من الضباط ذوى الرتب الصغيرة ، ثم مجموعة ثالثة لاتزيد على الخمسة من الضباط الكبار . لم يكن للفتيات أن يخدمن أو يقمن بالحراسة أو ما إلى ذلك ، بل كانت لهن أعمال أخرى حول المعتقل أو فى داخله . . . مضى على وجود الأسرى مايقرب من شهر وقد وضعت الحرب أوزارها

وبدت الأمور وكأنها استقرت بشكل نهائى ، عندما اصطدمت عيناها ذات صباح بقامة طويلة ورأس شامخ مشرع كسهم يوشك على الانطلاق . . . كان إسماعيل مدكور هناك ، يضع على كتفيه نجوما ثلاثة ، وكان يبدو فى وقفته وكأنه المنتصر لاالأسير ، كذبت عينيها لكن الواقع أجج الذكريات بلهب لم ينطفىء . . . فى ثورة الحماس كادت تبلغ الأمر لرئاستها فلربما استطاعت أن تعرف منه شيئا أو تصنع شيئا للوطن عن طريقه مستخدمة تلك العاطفة التى اكتشفت أنها لاتزال كامنة فى أعماق القلب لم تغادره ، لكن شيئا ما ، شيئا قاهرا منعها من ذلك . . . . كانت تعرف حبيبها وتعرف مدى اعتزازه بنفسه فلم ترد أن تعرضه للمهانة !

توقفت سيرينا عن الحديث ورفعت عينيها نحو الفتى وكان الدمع فيهما سافرا !

« بصراحة خفت عليه . . . . خفت يكسر الصورة الحلوة اللى فى قلبى ! »

ولم يكن هذا هو ماعذبها ، اعترفت هى بذلك ، كما اعترفت أنها اقتربت من فتاها الذى كان قد أصبح رجلا ، وتعمدت أن تتلاقى عيونهما بعد أن بحثت عيناها عن دبلة فى أصابعه فلم تجد . . . . كانت عشر سنوات قد انقضت منذ رأته آخر مرة لها على رصيف رقم ١٤ فى ميناء الإسكندرية وهو يلوح لها بمنديله والدمع فى عينيه كما كان ينهمر على وجنتيها . . . ذات يوم التقت عيونهما صراحة ، تحفزت كى تحذره من الإتيان بأية حركة تنبىء بأنه يعرفها ، لكنه سحب عينيه بعيدا عنها وتشاغل بما كان يشغله فى أسره !

« ماعرفنيش ياديڤيد .... تصور ماعرفنيش ! »

كانت تبكى وهى تحكى للفتى فى حرقة ... وكان هذا مادفعها إلى أن تقول له وهى تودعه فى تلك الليلة :

« عرفت ليه أنا باحبك وباحب اشوفك دايما ؟! »

ولم يرد رأفت الهجان ، مال على وجنتها فقبلها ثم انصرف !

●●●

كانت العلاقة الوحيدة التى سمح للفتى بأن يقيمها مع هؤلاء الذين كان يلتقى بهم فى بيت سيرينا أهارونى من العسكريين ، هى تلك العلاقة مع سجن ألوف دان رابينوفيتش وزوجته كلارا ... ولكن بيت هذه السيدة التى ظلت على علاقة حميمة بالفتى وحتى نهاية حياته ، كان عونا له فى تكوين شبكتين من أهم شبكات التجسس التى عرفتها الحرب الخفية بين المخابرات المصرية والإسرائيلية !

من هذا البيت كانت نواة تلك المجموعة المختارة بعناية فائقة ، وبعد دراسات استمرت شهورا ، من رجال الأعمال والاقتصاديين - فى مختلف النشاطات - الذين ارتبطت مصالحهم فكانوا يلتقون فى سهرات أسبوعية ومنتظمة تناقش فيها أحوال البلاد والسياسة بحرية ودون حرج !

وفى بيت سيرينا أهارونى كانت بداية تلك المجموعة الأخرى من العلماء الذين تتنوع مجالات نشاطاتهم من الذرة ، وحتى استصلاح الأراضى فى صحراء النقب .... وكان هؤلاء كتومين بطبعهم ،

يعرفون أنهم يحملون أسراراً خطيرة ... وإذا كان الهجان يستطيع وسط المجموعة الاقتصادية أن يدلى بدلوه ويناقش ويثير ويحصل على المعلومات بالجدل ، فإنه هاهنا كان يعرف قدر نفسه ، فيستمع دون أن يتدخل ، إلا إذا عنَّ له سؤال بدا للجميع ساذجا فكانوا يجيبونه فى ترحاب حتى ولو مست الإجابة سرا من الأسرار الكبرى .... يدفعهم إلى ذلك تواضعه الجم ، وثقتهم البالغة فيه ، وأسلوبه الرفيع فى الاحتفاء بهم .

هذه مجموعة ضئيلة رواتبهم لاتكفى كى يروِّح الواحد منهم عن نفسه وأسرته ، ولو لأسبوع فى كل عام ، فى رحلة إلى أوربا ... لكن « ماجى تورز » التى يملكها السيد ديڤيد شارل سمحون ، مكنتهم من ذلك بعمل تخفيضات خيالية فى الأسعار ، تخفيضات كانت الشركة تعوضها فى المبالغة فى أسعار رحلات أصدقاء الفتى من الاقتصاديين !!

....

....

قال عزيز الجبالى للسيدة هيلين سمحون ، إن رأفت التقى فى بيت هذه السيدة بنخبة من السياسيين والعسكريين والاقتصاديين والعلماء ... وإنه فى هذا البيت التقى بتلك الشخصية العسكرية المشهورة عالميا ، وإن سيرينا لعبت دورا مهماً وفعالا فى توطيد الصداقة بينهما ... ولقد وجد هذا القائد العسكرى فى الفتى رفيقا حلو المعشر ، وصديقا يفهم أن نزوات القادة لاتحط من قدراتهم أو قيمتهم ... وفى حقيقة الأمر أن رأفت الهجان كاد يطير من الفرح ،

خاصة عندما زاره صاحب تلك الشخصية المرموقة فى بيته ذات مساء على غير موعد ، وجلس إليه حتى وقت متأخر من الليل ، وثرثر بالكثير من المعلومات التى أسرع الفتى بإرسالها إلى القاهرة ، مشفوعة بطلب الإذن بالاقتراب منه . طلب قال فيه بالحرف الواحد :

« . . . . إنه يثق بى ثقة لاحدود لها ،
وهو يتحدث أمامى بحرية وبلا تحفظ ، ويدلى برأيه فى زملائه وفى السياسيين دون حرج ، ووجهة نظرى فى الموضوع هى أن هذا الرجل يعرف فى قرارة نفسه أن الهالة الموضوعة من حوله زائفة ، وأنه فى الحقيقة ليس بطلا ، لكنه متمسك بأن يلعب دور البطل ! »

وصلت هذه الكلمات إلى القاهرة ، فصدرت عنها فى نفس اليوم برقية إلى إحدى دول أوربا ، وانتقلت البرقية فى نفس الليلة إلى إسرائيل وكانت تحمل - بالرغم من سطورها العديدة - كلمة واحدة هى : «ابتعد ! »

وابتسمت السيد هيلين، وكأنها استراحت من عبء ثقيل !

* * *

الغريب فى الأمر أن المحقق فى تلك الفترة - بداية حقبة الستينيات - التى شهدت أعنف أنواع الصراع بين المخابرات المصرية وجهاز الموساد الإسرائيلى . . . . سوف يكتشف أن كلا الجهازين ، فى عمليات بعينها هى عمليات تجنيد العملاء بالذات ، كان يتبع أسلوبا واحداً ، وكان الرجال من الجهازين يستعملون فى الغالب نفس الحجج ، بل ربما نفس الكلمات !!

هذه ملاحظة نراها جديرة بالتوقف أمامها ، لأنها تثير بالضرورة عددا لابأس به من الأسئلة ! فهل كان هذا التشابه معلوما للطرفين منذ البداية ؟ . . . أم أنه ظل خافيا لفترة ؟ !

وهل بدأت الموساد بهذا الأسلوب ، بصفتها الجهاز الأقدم ، ثم التقطته المخابرات المصرية كى تطوره وتطوعه وفقا لاحتياجاتها وأهدافها ؟ !

أم أن الظروف التى أحاطت بالمنطقة فى تلك الحقبة ضيقت الخناق على الجهازين معا فلم يجدا أمامهما سوى اتباع نفس الأسلوب ونفس الحجج ، بل وربما نفس الكلمات ؟ !

ومهما كان الأمر ، فإننا هنا - بالقطع - لانبحث عن إجابة لمثل هذه الأسئلة . . . ولكننا نطرحها لأنه لابد من طرحها ، ولابد من أن تكون محل اهتمام ودراسة ، أو على الأقل ، محل تفكير .

ولكى نوضح الأمر نقول : إن المخابرات الإسرائيلية - بعد ذلك بسنوات !! - عندما أرادت تجنيد فتاة مصرية تدرس فى السوربون بباريس - وأطلق عليها اسم « عبلة كامل » فى قصة « الصعود إلى الهاوية » التى تحولت إلى فيلم سينمائى - كانت الحجة التى ساقها ضابط المخابرات الإسرائيلى كى يقنعها بالتعاون معه قبل أن يفصح عن هويته ، أنه يعمل لحساب منظمة سرية تعمل من أجل السلام العالمى . . . . وعندما تورطت « عبلة كامل » وأرادت أن تجند صديقا لها فى القاهرة ساقت إليه نفس الحجة !

والذى يبعث على الدهشة والعجب معا ، أنها نفس الحجة التى

ساقها رأفت الهجان لكل من سجن ألوف دان رابينوفيتش ، وراف سيرن إيزاك بن عميتاى ، كى يقنعهما بالتعامل معه !

●●●

تراكمت الديون على إيزاك بن عميتاى حتى أصبح احتمال تسديده لها مستحيلا تماما . . . ولم يكن الأمر بسيطا بالنسبة لضابط الطيران الإسرائيلى ، بل كان خطرا حقيقيا يهدد سمعته فى المجتمع ، وربما شرفه ووظيفته أيضا . . . وكان الفتى يعلم هذا تمام العلم ، ويعلم مدى الرعب الذى تسببه له تلك الإيصالات التى وقعها ، والتى كانت هى الأخرى تتراكم مع كل مبلغ جديد يقترضه . . . وبالرغم من كل شىء ، وقبل أن يخطو الفتى خطوته الخطيرة ويفاتح مهندس الطيران الإسرائيلى فى الموضوع ، كان قد اتخذ كل احتياطاته فى حالة إذا ماحدث ما ليس فى الحسبان ، وأبلغ عنه ذلك المقامر العتيد ! . . . . .

كان لابد من احتياطات خاصة بوجوده داخل إسرائيل ، وكيف ينكر وكيف يجعلهم يصدقونه إذا ما أنكر . . . ثم احتياطات أخرى كانت المخابرات العامة المصرية قد جهزتها له بحيث إذا ماوقع المحظور ، واستشعر الفتى الخطر بأى شكل من الأشكال ، استطاع أن يقفز - دون أن يشعر به أحد مهما كانت الرقابة المضروبة من حوله - كى يصبح فى مصر فى أقل من أربع وعشرين ساعة !

ولابد لنا من الاعتراف بأن رأفت الهجان قد ابتكر وسائل جديدة ، وخاصة به - غير التى تعلمها - فى تأمين نفسه . . . كان - على حد قول عزيز الجبالى - خلاقا فى وسائل التأمين تلك ، بحيث يضمن لنفسه خط رجعة لايثير أدنى قدر من الشك !

وعلى كل ، فما إن حانت تلك اللحظة المناسبة ، حتى كان على السيد ديفيد شارل سمحون المطالبة بحقوقه قبل هذا المقامر الذى أنساه داء الميسر كل شىء فى حياته حتى أولاده وبيته ، ولولا معونة صديقه هذا التى هبطت عليه من السماء ، لكان لحياته شأن آخر . . . وكان طبيعيا أن يغضب ديفيد فى لحظة ، بل كان طبيعيا أن يهدده بما لاتحمد عقباه إذا لم يسدد ماعليه من ديون !

ولم يكن أمام إيزاك سوى أن يتوسل - استعمل عزيز الجبالى هنا كلمة « ينوح » ولسنا نعلم إنْ كان هذا التعبير قد وصله عن طريق الفتى ، أم أنه تعبير خاص به ! - طالبا إليه أن يمهله بعض الوقت . . . ووصل به الأمر إلى درجة من الانهيار جعلت الفتى يتذكر إحدى وصايا نديم هاشم الذى قال له :

« شوف ياديفيد . . . أوعى تضرب إلا والحديد سخن ، إضرب والحديد سخن ! ! »

ولم يكن راف سيرن - رائد - إيزاك بن عميتاى ساخنا فى ذلك الوقت فقط ، بل كان - على حد تعبير الفتى - منصهرا !

قال له ديفيد ذات مرة :

« إذا كنت غير قادر على تسديد هذه الديون ، وإذا كان راتبك الذى تتقاضاه من الجيش لايكفيك ، فلِم لاتبحث عن عمل إضافى يدر عليك دخلا تستطيع به أن توازن أمورك ؟ ! »

كانت اللحظة الحاسمة تقترب ، وكان الوقت متأخرا وقد انصرف موظفو الشركة جميعا ولم يبق هناك سواهما . . . وبالرغم من أن الفتى كان قد اطمأن تماما إلى عدم وجود آخرين فى المكان ، فقد اعترف بأن

قلبه كان يدق فى عنف لدرجة أنه فكر فى تأجيل تلك الخطوة الأولى ، لولا أنه كان يعلم أنه لو أجل الأمر مرة ، فلن يستطيع الإقدام عليه مرة أخرى . . . كان إيزاك فى حالة يرثى لها من التردى عندما قال :

« إننى على استعداد لأى عمل تسنده إلىّ ! »

ضحك رأفت :

« لست أنا ياصديقى ، فالشركة لاتحتمل وجود راف سيرن فى الجيش موظفا بها ! »

« ولم لاتساعدنى فى البحث عن عمل ؟ ! »

نظر إليه الفتى طويلا ، وبدا عليه السهوم ، فهتف إيزاك فى توسل :

« أى عمل . . . . أى عمل ! »

قال الفتى وهو ينهض زافرا :

« سأحاول ، ولكنى أريد المال حتى ولو لم أوفق ! »

كانت هذه هى المرحلة الأولى فى تلك الخطوة الخطيرة - بل والمميتة - التى كان الفتى يخطوها . . . غادره بن عميتاى دون أن يجرؤ على طلب قرض جديد ، وتركه الفتى للهفته ، وكان يعلم أنه سوف يتركه طويلا . . . يتركه حتى يذبل ويسقط وحده !

بعدها . . . استدار الفتى نحو الآخر ، نحو سجن ألوف - عقيد - دان رابينوفيتش !

***

كان الأمر مختلفا كل الاختلاف مع هذا العقيد الذى كان - حتى تلك اللحظة - يتخايل فى مشيته كالطاووس . . . فالرجل غارق فى

حب زوجته إلى أذنيه ، غارق فى حب تلك الفتاة الباهرة الحسن التى تبدو وكأنها لاتفكر فى شىء إلا فى ذاتها وجمالها فقط . . . وكان الفتى يعرف متى يأتيه دان رابينوفيتش كى يطلب قرضا ، وكيف يبدأ الحديث عادة بالشكوى من كلارا التى أصبحت مطالبها لاتطاق . . . ذلك أن ارتباطاتها بمجموعة من الأثرياء تدفعها إلى الإنفاق على ملابسها وزينتها ببذخ لم يعد فى مقدوره أن يسايره أو يلبيه . . . وأن همها كله أصبح محصورا فى مجاراة هؤلاء الذين كانوا - فى واقع الأمر - يعيشون فى أوربا اكثر مما يعيشون فى إسرائيل . . . ولقد كانت كلارا تعلم أن عزيزها ديفيد هو مصدر المال بالنسبة لزوجها ، ولذلك ، ولأنه كان عزبا وجذابا ، فلقد راحت تطارده بالدعوات . . . بينما كان هو - حتى بدون تلقين - عندما حانت اللحظة المناسبة ، يهرب منها ومن زوجها الذى راح يطارده فى كل مكان !

كان للحديث مع دان طعم آخر وأسلوب آخر .

« أيها العزيز دان . . . إن الأمور تتفاقم وديونك تتراكم ! »

احتقن وجه الرجل بالحرج ، وأردف الفتى :

« أنت تعلم كم يسعدنى أن أمد لك يد المساعدة ، ولكن الأمر . . . . »

فى صلف وغطرسة بالغين قاطعه دان :

« ديفيد . . . إننى على استعداد لأن أوقع لك إيصالات بكل ما اقترضته منك ! »

« وهل هذه هى المشكلة ؟ ! »

زفر دان وتلاشت من وجهه علامات الغطرسة فجأة وهو يتمتم :

« ولكننى مضطر . . . أنت تعرف أننى مضطر !! »

« إذن فعليك أن تبحث عن حل ! »

«حاولت فلم أجد . . . أنا لا أتقن شيئا فى هذا العالم سوى عملى ! »

« ولكن من هم مثلك يمتلكون الكثير فى هذا البلد ! »

قفز دان كمن لدغته عقرب صائحا :

« لا تردد على سمعى ماتردده كلارا وإلا فقدت عقلى ! »

نظر إليه الفتى باسما فى سخرية فانفجر فيه هذا :

« لقد حاولت . . لكنهم يقفون بالمرصاد لكل من يقترب من نشاطاتهم ! »

« هذا أمر طبيعى ! »

« كما أنهم يريدون الاستئثار بكل شىء »

« ولم لا تبحث عن نوع من النشاط لايمارسونه ؟ ! »

« قلت لك إننى لاأتقن شيئا فى الدنيا سوى أن أكون رجلا عسكريا ! »

« وماذا فى ذلك ؟ ! »

« إن الجنود فى هذا البلد لايتقاضون سوى رواتبهم ! »

« هكذا حال الجندى فى كل بلاد العالم إلا إذا . . . . »

قاطعه الرجل ممزق الصوت :

« ديڤيد إن الأمر . . . إن . . . لابد أن تدرك أن الـ . . . . »

توقف الرجل عن الحديث وأدرك ديڤيد أن هناك مايعذبه ، لزم الصمت وهو يرقب الرجل الذى كان الآن يتمتم بكلمات لاتبين . . . حتى إذا كانت لحظة ، انهار فجأة :

« ديڤيد . . . أنت تعرف كم أحب كلارا ! »

كان رأفت بالقطع يعرف ، فراح يرقب الرجل المحتقن الوجه وهو يردف :

« وتعرف تلك المغريات التى تحيط بها من كل جانب ! »

حانت اللحظة الحاسمة فانقض الفتى عليه :

« ألا تريد أن تفصح عما يضايقك ؟ ! »

هتف الرجل معذبا :

« لست غيورا كما قد يتبادر إلى ذهنك ، ولكن الأمر . . . . . . »

كان دان يتمزق ، والكلمات تتعثر بين شفتيه وتتساقط ، وكلما همّ بالحديث تراجع وكأنه يخشى من الإفصاح عما لايريد الإفصاح عنه ، لكنه استسلم فى النهاية :

« أنت تعرف ذلك الشاب الذى . . . . . . »

عاد فأمسك عن الكلام مرة أخرى ، كان الموقف عصيبا فنهض رأفت الهجان كى يعد له كأسا ، تمتم وهو يقدم له كأسا مترعة :

« إنها صغيرة السن وراغبة فى الحياة ! »

تناول الرجل كأسه رافعاً عينيه نحو الفتى الذى جلس قبالته :

« فى البداية كانت مفتونة بك ، تدفعنى كل يوم إلى لقائك ! »

« دان ! »

هكذا حذره الفتى لكن الرجل استطرد :

« وكنت سعيداً بذلك لأنى أعرف أنك تقدس الصداقة ! »

أراد الفتى أن يقول شيئا لكنه لم يجد ما يقوله .

« ولكنك ابتعدت فى الآونة الأخيرة ، ابتعدت حتى ظننت أنك تتعمد الابتعاد ! »

« إن مشاغلى كما تعلم . . . . »

قاطعه الرجل :

« ثم ظهر ذلك الشاب التافه المفعم بالمال ! »

« لاتسىء الظن بها ! »

« ليس الأمر كذلك ، إنه المال وأنا أعرف أنه المال ! »

« عدنا من حيث بدأنا ! »

« فماذا أفعل إذن ؟ ! »

ولم يفه الفتى بكلمة ، كان يدرك أن اللحظة الحاسمة تدنو منهما حثيثا ، أفرغ الرجل كأسه فى جوفه فأمده الفتى بكأس أخرى ، ظل دان رابينوفيتش يحملق فى فراغ الغرفة وكأنه يجمع من الهواء شتات نفسه ، عندما تحدث جاء صوته واهنا ضعيفا على غير العادة :

« عندما تزوجتها لم يكن فارق السن بيننا يعنى بالنسبة إلىَّ شيئا على الإطلاق . . . أنا أعلم أن جسدى قوى فلقد حافظت عليه سنوات بعد سنوات ، لكنى . . . لكنى عندما ضممتها إلى صدرى لأول مرة أحسست ـ والدهشة تملؤنى ـ كم هى صغيرة ، شعرت وكأنى جذع عجوز كساه اللحاء الخشن ، يضم إليه غصنا أخضر . . لم أشعر أننى تقدمت فى السن إلا فى ذلك اليوم . . . إن . . . إن جسدها يمدنى بما يشبه إكسير الحياة ! »

صمت الرجل فهبط الصمت ثقيلا كثيفا كالزئبق ! . . . راحت كأس دان ترتجف بين أصابعه ، وكانت عيناه حمراوين ، وجسده يتهدل لحظة بعد أخرى ويتداخل ويتضاءل حتى لكأنه سوف يتلاشى . . . وعندما عاد إلى الحديث ، كان صوته متحشرجا بعذابات بلا نهاية :

« تجاهلت الأمر فى البداية خاصة أنها بدت لى سعيدة ، لكن كل يوم يمر كان يزيدنى إحساسا بتقدم سنى ، حتى جاء الوقت الذى أحسست فيه وكأننى دراكيولا . . . كنت أشعر كلما قبلتها أننى أمتص دماء شبابها كى أجدد به كهولتى . . . إن شبابها يمدنى بشباب طال البعد عنه والشوق إليه واليأس منه . . . هو . . . هو شىء بشع ورهيب ومميت ، لكنه يفوق الخيال فى نشوته ! »

سقطت دمعة من عين العقيد الشهير ، هم الفتى بمواساته لكن الرجل هز رأسه نفيا وهو يطوح بالكأس إلى جوفه مردفا :

« أنت لاتزال فى شرخ الشباب ياديفيد ولايمكنك أن تفهم ! »

أسرع الفتى كى يملأ له كأسه من جديد فغمغم الرجل بصوت كالفحيح :

« غير أنه أصبح من المستحيل علىَّ أن أعيش بدونها ، من المستحيل ياديفيد فهى التى تمدنى الآن بأسباب الحياة ! »

غص حلق الفتى تأثرا ، لكنه أفاق على قول الرجل :

« ولذلك ، فلابد لى من المال . . . لابد لى من المال ! »

وبالنسبة للفتى ، وبالرغم من تأثره ، فلقد كانت هذه لحظة لاتعوض !!

« هناك وسيلة لست أدرى إن كانت تناسبك أيها العزيز دان ! »

« إن أية وسيلة تناسبنى مادمت لن أفقد كلارا ! »

أطرق الفتى مفكرا وكأنه يبحث عن حل . . . قال رأفت الهجان إنه فى تلك اللحظة لم يشعر بالخوف أو التردد مثلما حدث له مع إيزاك

بن عميتاى رغم أن خطوته هذه أخطر وأوسع بكثير . بعد لحظات تظاهر فيها بالتردد قال :

« سمعت عن منظمة سرية تعمل من أجل إقرار السلام الشامل فى العالم كله ! »

رشف تات ألوف دان رابينوفيتش من كأسه رشفة ، ثم تساءل :

« أية منظمة تلك ؟ ! »

« لست أدرى بالضبط فليست لى بهم علاقة مباشرة ! »

« وما الذى يسعون إليه ؟ ! »

« إقرار السلام فى المناطق المشتعلة بالتوتر ! »

« وكيف ؟ ! »

« بالمعلومات طبعا ! »

بدأ الانزعاج على وجه العقيد وهو يعتدل فى جلسته :

« أية معلومات ؟ ! »

« معلومات تعينهم على تحقيق مهمتهم ! »

ازداد تحفز دان فسأل فى غلظة :

« هذا مفهوم ، ولكن أى نوع من المعلومات يريدون ؟ ! »

« لابد أنها معلومات عسكرية ! »

« ديڤيد ! »

هكذا هتف سجن ألوف مستنكراً وقد نفض همومه وهو يقفز ناهضاً . . . ظل الفتى ساكناً فى مكانه وكأن الأمر لايعنيه ، رفع إليه عينيه فى نظرة باردة فأردف هذا :

« ألا تعرف خطورة ماتعرضه على ياديڤيد ؟ ! »

« أعرف بالطبع ! »

« إنه شىء خطير ! »

« كنت أريد مساعدتك ! »

«بمثل هذا الأمر المروع ؟ ! »

نهض الفتى وكأنه ينفض كل شىء :

« إذن فلننس الأمر برمته ! »

تشاغل الفتى بإعداد كأس وظل الرجل واقفا فى مكانه دون أن ينصرف أو يجلس ، فقط راح يتمايل فى وقفته كجذع تحاول رياح خفية أن تقتلعه من مكانه ، كان الفتى يعلم أنه فى حاجة ماسة إلى المال ، وأنه إذا طلب الآن قرضا ، فلسوف يعنى هذا موافقته . . . ظللهما الصمت من جديد حتى قال الرجل :

« لا . . . لا لا . . . إنه أمر خطير للغاية . . . قد لاتعرف أنت وقد لاتفهم ماوراء هذا ولكن » .

انقطع فجأة عن الحديث وهو يسدد للفتى نظرات ملتهبة ، ومالبث أن حسم أمره فى لحظة مندفعا نحو الباب وكأنه يهرب من شبح :

« إلى اللقاء ياديڤيد . . . إلى اللقاء ! »

. . . .

. . . .

تلك كانت ليلة عصيبة مرت بالفتى ، فبالرغم من ذلك الإحساس الشديد بالثقة فإن قلقا غامضا تسرب إلى نفسه : فماذا لو أن الرجل

ابلغ عنه ؟ ! . . . هل يأتونه مباشرة أم يراقبونه حتى يسقط بين أيديهم ؟ !

هو يعلم أن دان رابينوفيتش لايستطيع إثبات شيء عليه . . . ثم إنه كان قد اتخذ حيطته للأمر بحيث يأتي أي نوع من أنواع الوشاية من العقيد المتصابي على أنه كيد لاأكثر ولا أقل !

مع تقدم الليل كان قلق رأفت الهجان يتصاعد وقد جافاه النوم . . . . كان في استطاعته أن يغادر بيته ليصبح خارج إسرائيل قبل أن يطلع النهار . ولكن . . كيف ينسحب بعد الخطوة الأولى ، ولا ينتظر حتى يواجه النتائج كأي بريء ؟ !

ما إن جاء الصباح حتى كان قد استقر رأيه على الانتظار حتى تسفر الأحداث عن مكنونها . . . قرر أن يركز انتباهه على كل ما ومن يدور حوله ، حتى إذا ما اطمأن تماما ، أعلن الحرب وقرر الإجهاز على إيزاك بن عميتاي الذي كان يلاحقه في صباحه ومسائه سائلا إياه عن العمل الذي وعده به .

ومرت أيام ثلاثة .

قال الفتى إنه عاني في تلك الأيام قلقا مزق ساعاته تمزيقا . . . في مساء اليوم الثالث جاءه صوت سيرينا أهاروني معاتبة :

« ماهذا الذي فعلته أيها المأفون ؟ ! »

هكذا جاءه صوتها ـ وكانت تتحدث بالعبرية ـ عبر أسلاك التليفون فتساءل :

« ما الذي تقصدينه بالله عليك ؟ ! »

« لماذا أغضبت دان رابينوفيتش إلى هذا الحد ؟ ! »

دق قلب الفتى في عنف لكنه تمالك نفسه وتصنع الضحك :

« أهو غاضب مني ؟ ! »

« إني في انتظارك الليلة كي نحل هذا الموضوع ! »

أدرك رأفت الهجان أن شيئا خطيرا قد حدث ، كان معنى جملتها الأخيرة أنها لاتريد للحديث أن يتم عبر أسلاك من الممكن أن تراقب ، أعاد السماعة إلى مكانها وكانت خطة هربه جاهزة ؟ ! . . . ظل حائرا لدقائق وهو يقلب الأمور على كل وجوهها ، هل أخبر دان سيرينا بالأمر ؟ ! . . . إنْ كان قد فعل فإن معنى هذا أنه لم يبلغ السلطات . . . إنْ كان قد فعل فإن معنى هذا أن سيرينا ـ هي الأخرى ـ قد تجاوزت الأمر . . . وقد يكون معنى هذا كمينا ينصب له حتى يعترف أمام شاهد آخر !

أغلق على نفسه باب مكتبه وأسدل الستائر وأسرع إلى درج سرى في مكان ما في غرفته ـ قال عزيز الجبالي عن المكان ، إن اختياره كان ذروة في الذكاء والدهاء معا ، وإن البعض مازالوا يستعملون هذه الوسيلة حتى الآن ! ! ـ التقط من الدرج السرى جواز سفر ذا لون خاص ودسه في جيبه ، دق جرس التليفون وعندما رفع السماعة أنبأته يهوديت موردخاي ـ سكرتيرته ـ أن إيزاك بن عميتاي يطلب مقابلته ، طلب إليها أن تمهله دقائق وراح يرتب بعض الأوراق ، لكن عقله كان يعمل في سرعة شديدة .

سؤال واحد ألح عليه : فإذا كان دان قد أخبر سيرينا ، ومهما كانت

لنتائج ، فلن يبقى له عيش فى إسرائيل ، فلم لايضرب عصفوره لثانى - إيزاك بن عميتاى - فقد تصيب الضربة ؟ !

ما إن جلس ضابط الطيران أمامه حتى سأله :

« ماذا عن العمل الذى وعدتنى به ياديڤيد ؟ ! »

على استحياء جاء السؤال الذى كان الفتى فى انتظاره ، وفى لامبالاة جاء رد الفتى :

« مارأيك فى منظمة سرية تعمل من أجل السلام ؟ ! »

« منظمة سرية ؟ ! »

« هذا ماقلته بالضبط ! »

« وما الذى تبغيه ؟ ! »

« بعض التعاون ! »

«أي نوع من التعاون هذا ؟ ! »

« لابد أنهم فى حاجة إلى بعض المعلومات »

« أية معلومات ؟ ؟ »

راح الفتى يشرح الأمر لإيزاك بن عميتاى فى وضوح ، قال إنه لايعرف هؤلاء الناس لكنه يعرف من يعرفونهم ويتصلون بهم ، هو لم يفاتح أحدا منهم فى الأمر حتى لايسبب له حرجا إذا ما رفض العرض ، لكنه « جس النبض » فعرف أنهم يدفعون بسخاء شديد ، هناك راتب شهرى يعادل راتبه كرائد فى سلاح الطيران الإسرائيلى ولكن . . . لكل خبر قيمته وثمنه ، فهناك فوق الراتب مكافات مجزية للمعلومات التى تستحق ذلك ، وإذا كان هدف المنظمة السرية هو إقرار السلام فى العالم كله فلابد أن تكون الخطوة الأولى فى تلك المناطق

المشتعلة كالشرق الأوسط ، خاصة مع وجود رجل عنيد وصلب مثل جمال عبد الناصر .

« إلى أية جنسية ينتمون ؟ ! »

« لست متأكدا وإن كنت اعتقد أنهم يتبعون إحدى دول أوربا الشرقية ! »

وإذا كان إيزاك من مواليد إحدى دول أوربا الشرقية فلا بد أن يؤثر هذا على مجرى تفكيره .

« أليس فى الأمر خطورة ؟ ! »

« لكل عمل مخاطره أيها العزيز إيزاك ! »

« ألا ترى أن الأمر فى حاجة إلى بعض التفكير ؟ ! »

« ربما ! »

هكذا جاء رد الفتى وهو ينهض معتذرا بأنه على موعد مهم فى بيت سيرينا أهارونى ، أوحت لهجته لإيزاك الذى كان يفرك كفيه قلقا بأنه على موعد مع تلك الشخصية العسكرية المشهورة عالميا ، نهض إيزاك متزلفا وكان الفتى يعلم أنه الآن فى سبيله لطلب قرض لكنه قطع عليه الطريق باستدعاء سكرتيرته . . . لم يكن صعبا على رأفت أن يتخلص من المقامر اللحوح ، كان يبغى الاختلاء بنفسه قبل الذهاب إلى بيت سيرينا ومواجهة قدره هناك . . . لكنه - وقبل أن يدخل البيت - أخفى جواز السفر ذاك الذى أخذه من درجه السرى . . . ما إن دخل بيت سيرينا حتى وجد المفاجأة أمامه حاسمة ، وغير متوقعة . . . مفاجأة أطارت النوم من عينى رأفت الهجان لعدة ليال أُخَرَ !

الفصل الثانى

ليلة المفاجآت !

أطلق الفتى على تلك الليلة التى قضى منها جزءا فى بيت سيرينا أهـارونى اسم « ليلة المفاجآت » . . . اعترف أن توتره كان يتصاعد لحظة بعد لحظة حتى دخل بيت سيرينا التى استقبلته كالعادة بترحاب شديد وقبلات حميمة . . . كانت المفاجأة الأولى أنه وجد هناك لفيفا من الأصدقاء من بينهم دان رابينوفيتش وزوجته الحسناء كلارا . . . وكان هنـاك أحـد أعضاء الكنيست الإسرائيلى ، وعالم فى الذرة من أصل روسى ، ثم أستاذ فى الجامعة !

عندما طلبت سيرينا إلى الفتى أن يلتقيا لتصفية الموقف بينه وبين دان ، ظن هذا أن الأمر سوف يقتصر عليهما وحدهما . . . فلقد تصور أن المشكلة بينـه وبـين القائد المتصابى خطيرة ولاتحتمل لقاء يحضره آخـرون . . . وعلى كل ، فلقد داخله ارتياح غامض عندما صافحه الجميع فى ترحاب ـ بمن فيهم كلارا زوجة دان ـ بينما صافحه هذا فى تجهم واضح وكأنه يعلن غضبته على الجميع !

لما وصل رأفت الهجان كان الموضوع المطروح للمناقشة هو الوحدة

بين مصر وسوريا » . بعد وصوله استأنفوا الحوار وكان الرأى الغالب هو ضرورة العمل على فصم تلك الوحدة بأى ثمن لأنها لو بقيت فلسوف تتأصل ، وإذا تأصلت فلسوف تجتاح العالم العربى ، ولن يكون فى هذا خطر على إسرائيل وحدها ، بل ستكون كارثة على المنطقة كلها !

ولقد أدلى عضو الكنيست بدلوه قائلا إن الوحدة لن تستمر وإن الانفصال - استعمل الفتى فى تقريره الذى أرسله عن تلك الليلة كلمة الانفصال التى لم تكن قد عرفت بعد ! ! - آتٍ لاريب فيه ، فإن إسرائيل ليست وحدها فى المنطقة ، وهناك دول عربية أخرى تسعى لنفس الهدف ، وإن عبد الناصر سوف يتلقى درساً لن ينساه مدى حياته !

مضت دقائق قبل أن تنتحى سيرينا بالفتى فى ركن بعيد هامسة :

« أنا عاوزه اسألك سؤال ، وعاوزاك تجاوبنى عليه بصراحة ! »

« اسألى ! »

« انت فيه حاجة بينك وبين كلارا ؟! »

« إطلاقا ! »

قالها الفتى فى حسم جعل سيرينا تحملق فيه غير مصدقة .

« أنا طلبت منك إنك تجاوبنى بصراحة ياديڤيد ! »

« وأنا جاوبتك بصراحة ! »

هكذا رد رأفت الهجان باسما فلقد اطمأنت نفسه الآن بعد أيام كابد فيها قلقا مدمراً . . . أدرك أن الرجل لم يصرح حتى لسيرينا بما دار بينهما . . . التفتت هى نحو سجن ألوف دان رابينوفيتش الذى كان فى

تلك اللحظة مستغرقا فى الحديث بزهو وخيلاء عن قدرة الجيش الإسرائيلى المتزايدة ، عادت إلى الفتى :

« مش دى حاجة غريبة ؟ ! »

« ايه هو اللى غريب ؟ ! » .

« انت تعرف إن دان وكلارا اتخانقوا خناقة جامدة علشانك ؟ »

قال غامزا :

« ماهم دايما بيتخانقوا . . . بس مش علشانى ياسيرينا ! »

« أمال ايه اللى مزعله منك قوى كده ؟! »

« اسأليه ؟! »

« هو طلب منك فلوس ؟ ! »

هرب من سؤالها هاتفاً :

«إذا كان زعلان من حاجه ، مش يقول لى عليها ؟ »

انت مستعد تصفى المسألة ؟ ! »

« مش لما اعرف إيه هى المسألة أولا ! »

كان دان قد انتهى من استعراض عضلاته وترك للمناقشة بين الآخرين أن تأخذ مجراها تحركت سيرينا حركة لفتت نظر القائد فالتفت نحوها ، أومأت إليه فنهض على الفور وقد أدرك مقصدها ، سرعان ماجمعته مع الفتى متحدثة إليهما بالعبرية ، وبصوت شديد الخفوت ، قالت :

« على كل منكما ألا يغادر مكانه هذا قبل أن تُصفى كل الخلافات ! »

تركتهما وانصرفت فقال الفتى :
« أخبرتنى سيرينا أنك غاضب منى ؟ ! »
« بالتأكيد ! »
« ولِمَ ؟! »
« لعلك لم تنس لقاءنا الأخير ياديڤيد ! »
« وكيف أنساه وقد تركتنى بذلك الأسلوب الفظ ! »
سدد دان إليه عينين زجاجيتى النظرة قائلا :
« كان من الصعب أن أبقى دقيقة واحدة ! »
التزم الفتى الصمت ، فعاد دان يغمغم :
« وكان الأصعب أن أذكر لأحد سبب غضبى ! »
اقتحم رأفت الموقف :
« وماهو السبب ؟ ! »
احتقن وجه الرجل متحدثا من بين أسنانه :
« ألم أطلب إليك قرضا ؟ ! »
وكانت هذه هى المفاجأة الثانية فى تلك الليلة ، قال الفتى إنه لم يتصور ولم يخطر بباله رغم أنه قلب الأمر على كل وجوهه ، أن يكون هذا هو سبب غضب دان رابينوفيتش . . . . قال إنه تعلم فى تلك الليلة درسا لاينسى ، وهو أن الولاء لإسرائيل عند هؤلاء الناس ليس أكثر من مظهر يخفون به وَلاءهم الحقيقى لذواتهم . . . حاول أن يرد على الرجل لكنه لم يستطع . . . داخله احتقار بالغ لتلك الشخصية التى كانت تتخايل منذ دقائق أمام الناس فإذا واقعها نقيض لايخطر على بال ، غمغم دان مستطردا :

« لم يكن ممكنا أن اذكر لأحد ـ ولالكلارا ـ مثل هذا الأمر الشائن ! »
« لعلك لم تنس أنك تركتنى مندفعا دون أن نكمل حوارنا ! »

« لقد أحسست أنى أقف أمامك عاريا ياديڤيد ! »
« ليس بين الأصدقاء مايحجبونه عن بعضهم البعض أيها العزيز دان ! »
« ثم إنك لم تفكر طيلة الأيام الثلاثة التى مضت فى أن تتصل بى وقد كنت تعرف مبلغ حاجتى إلى المال ! »
« إنى لم أفهم سر انصرافك بهذا الأسلوب المهين ! ! »
أدرك الفتى أن الرجل يلف ويدور كى يصل إلى تلك النقطة التى يعلن فيها موافقته على العمل مع تلك المنظمة السرية ، ولقد كان فى استطاعته أن يختصر الطريق ويوفر عليه مشقة اللف والدوران ، ولكنه تركه كى يخطو بنفسه كل مايلزم من خطوات ، جاءته الفرصة عندما هتف دان :
« المؤلم فى الأمر ياديڤيد أنى مدين لك بمبلغ لايستهان به ! »
« ولذلك فلقد عرضت عليك حلا لكل مشاكلك ! »
دمدم الرجل هاربا بعينيه إلى بعيد :
« كان الأمر فى حاجة إلى تفكير ! »
اتسعت ابتسامة الفتى ولم يرد ، فأردف دان :
« ثم إن الأمر ليس بالبساطة التى تظنها ! »
« أنا لم أقل إن الأمر بسيط ! »

« ثم إنه يبدو أن الحياة فى إسرائيل قد أنستك الكثير من حذرك ! »
« حذرى ؟ ! »
« أنت سليم النية ياديڤيد ! »
« حقا ؟ ! »
« ومن حقى - لأنك صديق حميم - أن أخاف عليك خوفى على نفسى ! »
« ومِم الخوف أيها العزيز دان ؟ ! »
« إن مثل هذه المنظمات قد تحمل وراء النوايا الحسنة ، أخطارا بلاحدود ! »
« كيف ؟ ! »
« قد لاتكون المنظمة للسلام ، ولكن للتجسس ! »
« إن من حقك أن ترفض ! »
« ليس قبل التيقن من حسن نواياهم ! »
« وكيف تتيقن من أمر كهذا ؟ ! »
« بأن ألتقى بواحد منهم ! »
وكانت هذه هى المفاجأة الثالثة فى تلك الليلة الغريبة . . . . وحتى عندما اطمأنت نفس الفتى ، فلقد كان ينتظر أى شىء ، بل كل شىء . . . انتظر أن يواجه بأسوأ الاحتمالات ، لكنه لم ينتظر طلبا كهذا . . . أفاق من استغراقه على قول السيد رابينوفيتش :
« لابد أن ألتقى بواحد منهم ! »
« لست أدرى إن كان هذا ممكنا ! »
« لماذا ؟ ! »

« هل نسيت أنها منظمة سرية . إن لها فروعها فى جميع أنحاء العالم ؟ ! »
« حتى لو كان الأمر كذلك ، لامفر . . . لابد من أن ألتقى بواحد منهم حتى أطمئن ! »
« لست أعدك بشىء »
تشبث الرجل بموقفه :
« إن هذا اللقاء سوف . . . . »
قاطعه الفتى :
« لاتنس أننى لاأعرفهم ! »
« هل يدفعون جيدا ؟ ! »
لم يكن السؤال منتظرا فضحك الفتى رغما عنه . . . زمجر دان :
« ما الذى يضحكك ؟ ! »
تجاهل الفتى سؤاله هذا مجيبا :
« سمعت أنهم يدفعون بسخاء شديد ! »
« إذن . . . فعليك أن تدبر لى هذا اللقاء فى أسرع وقت ممكن ! »
كان دان يحاول - فى مناورة فوتها عليه الفتى - أن يطلب قرضا جديدا ، وكان رأفت يعمل فكره فى حيرة من الأمر كله . . فلقد وجد لهذا الحوار وجهين لاثالث لهما ، أما الوجه الأول فهو يعنى أن الرجل يعلن موافقته الكاملة على التعاون معه ، وأن شرطه الذى يضعه ليس سوى مبرر واهٍ لتلك الموافقة ، وعلى الوجه الآخر ، كان هناك احتمال أن يكون الأمر فخا منصوبا كى يقع فى شراكه . . . فعلى أى الوجهين يلعب هذا الرجل ؟ !

عاد رأفت الهجان ودان رابينوفيتش إلى الجمع وقد علت الابتسامات وجهيهما ، غمغم الفتى وهو ينهض قبل أن ينقض عليه الرجل بطلب قرض جديد :

« علينا أن نعود إليهم مبتسمين ! »

أسقط فى يد دان فتعلقت عيناه بالفتى الذى أردف :

« المفروض أنك غاضب منى ، وأننا تصافينا ! »

انضما إلى الجميع ، واستغرقوا فى الحديث حتى اقترح أحدهم أن يلعبوا الورق ، شاركهم الفتى تاركا نفسه لأمواج السهرة كى تحمله إلى حيث يريدون فلقد كان ذهنه غائبا وسؤال يلح عليه :

هل من الممكن أن يلتقى دان برجل من القاهرة ؟ !

وكيف سيدبر الرجال هناك الأمر ؟ !

وإذا كانت هناك خدعة أوفخ ، فكيف يستطيع أن يكتشف الأمر ، وكيف يستطيع الفكاك ؟ !

قبل أن ينصرف رأفت سألته سيرينا عما هو صانع فى الغد ، فقال على الفور :

« سأطير إلى روما لأربع وعشرين ساعة ! »

هتفت كلارا رابينوفيتش :

« حقا ؟ ! »

التفت الفتى نحوها ممازحا :

« أنت تعرفين أننى لاأنساك أبداً أيتها العزيزة كلارا ، فقط حددى نوع العطر الذى تريدينه ! »

اقتربت منه الزوجة الحسناء معلنة أن ماتريده من إيطاليا ليس عطراً ولكنه شىء آخر ، استغرقت معه فى الحديث عن نوع جديد من حقائب وأحذية السيدات غزت به إيطاليا أسواق العالم ، داعبها الفتى فداعبته ووعدها بتلبية كل رغباتها وكان دان يبدو سعيداً كل السعادة !

وهى تودعه عند الباب همست سيرينا أهارونى بالعربية :

« وبتقول إن مفيش بينك وبينها حاجة ! ! »

. . . .

. . . .

عندما عاد الفتى إلى بيته كانت حواسه كلها ترقب ماحوله ، لم يكن قلقا بقدر ماكان حائرا ، وهو عندما اتخذ قرار سفره فى اليوم التالى إلى روما ، كان قد اتخذ قرارا آخر بأن يضع الأمر برمته بين أيدى الرجال فهم أقدر على الاستنتاج أو التحليل أو معرفة الحقيقة ، ولو كان فى الأمر فخ منصوب فلسوف يصبحون أقدر على حمايته ، وعندما صعد إلى بيته كانت وسائل أمانه تنبىء أن كل شىء على مايرام ، كان هناك خيط رفيع من نفس لون الباب يربط « الدلفتين » - أصبحت هذه الوسيلة الآن قديمة ، بل ومضحكة - وكان الخيط فى مكانه مما ينبىء عن أن الباب لم يفتح فى غيابه . . . فى الداخل انبأه التراب المنثور خلف الباب مباشرة أن قدما لم تطأ البيت فاطمأن إلى أن أحدا لم يقتحمه ، طاف بالغرف غرفة غرفة حتى اطمأن ، همَّ بتغيير ملابسه عندما دق جرس التليفون فانزعج ، جاوز الوقت منتصف الليل فمن عساه يطلبه ، طافت بذهنه يهوديت موردخاى - سكرتيرته - فلقد كانت

فى الأيام الأخيرة قد بدأت تعلن عن غيرتها فتركها تمارس حقا من حقوق الأنثى ، اقترب من التليفون وقد اتخذ قرارا بأن يلقنها درسا يوقفها عند حدها ، رفع السماعة فجاءته المفاجأة الرابعة كالصاعقة :

« ديفيد . . . أين كنت ؟!»

« ماالذى حدث ياإيزاك ؟ ! »

قال بن عميتاى مضطرب الصوت إنه طلبه فى بيت سيرينا منذ نصف ساعة فأنبأته أنه غادرها منذ دقائق ، قال إنه طلبه بضع مرات فلِمَ تأخر فى الطريق . . . أدرك الفتى على الفور أن راف سيرن إيزاك بن عميتاى فى مأزق يريد الخروج منه . . . زمجر غاضب الصوت :

« ما الذى حدث بالله عليك أيها الرجل ؟ ! »

« هل تذكر حديثنا الليلة ؟ ! »

« وهل هذا وقت الكلام فى الذكريات ؟! »

« إنى أقبل ! ! »

حمد له الفتى أنه لم يذكر شيئا عن الأمر صراحة وأنه التزم جانب الحيطة أثناء الحديث فى التليفون ، غمغم متأففا :

« حسن . . . سأحاول أن أصنع شيئاً ! »

« ولكنى الآن فى ورطة »

لم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقامر فيها إيزاك بن عميتاى مستدينا حتى يورط نفسه ، استمع إليه الفتى فوجد أنه خسر مبلغاً كبيراً لابد من سداده الليلة والاحدث ما لاتحمد عقباه ، راح الرجل يحكى متوسلاً فالتزم رأفت جانب الصمت حتى هتف ايزاك مختنق الصوت :

« ديفيد . . . أرجوك !!»

« ولكنى لاأحمل هذا المبلغ الأن !»

فماذا أفعل إذن ؟!»

«هل يقبلون شيكا منى ؟! »

« انتظر حتى أسالهم ! »

غاب إيزاك لثوان ثم عاد متهللا :

« بالطبع يقبلون إذا كان الشيك منك أنت !»

« إذن فتعال كى تأخذ الشيك ! »

أعاد الفتى السماعة وقد بدت له المصادفة غير مقبولة . . . المحير فى الأمر أن كل شىء كان منطقيا تماما وواردا ومعقولا . . . أوصلته الحيرة إلى التليفون ، وكان هو الذى طلب يهوديت موردخاى هذه المرة !

أيقظ الفتاة من نومها طالبا إليها أن تحجز له مقعدا إلى روما قبل ظهر الغد ، زمجرت قائلة إن سفراته إلى إيطاليا أصبحت تقلقها ، رد عليها فى جفاء مذكرا إياها بأنه لايحب من يتدخلون فى شئونه الخاصة أو عمله . . . تراجعت الفتاة وهى تعده بأن التذكرة ستكون جاهزة قبل وصوله إلى المكتب ، ثم هتفت فى تزلف :

« سوف أمر عليك فى الصباح الباكر كى أجهز لك حقيبتك ! »

« ليس هذا مهما فلن أبقى فى روما لأكثر من أربع وعشرين ساعة ! »

أعاد السماعة إلى مكانها ، وكان عليه الآن أن يستعد للقاء « حسن القطان » !

●●●

استمع حسن القطان إليه صامتا حتى انتهى هذا من عرض الأمر برمته ، كانت الأنباء التى يحملها رأفت سارة بكل المعانى ، لكن طلب السيد رابينوفيتش بدا له محاطا بالشكوك . . . عندما وصل الفتى إلى روما ، كان أول مافعله هو طلب حسن بالتليفون ، دهش رجلنا فى روما عندما جاءه صوت الفتى على غير موعد أو تمهيد ، تبادلا ذلك الحوار الملغز واتفقا على موعد فى تمام الساعة السابعة ، قال الفتى إن إيزاك بن عميتاى جاهز للتعاون ، وليس هناك شك فى صدقه ، أوقفه حسن :

« على مهلك شوية يارأفت ! »

« أنا واثق من اللى أنا باقوله ياحسن بيه ! »

مش المهم انت تثق ، المهم همَّ فى مصر اللى يتأكدوا من الموضوع ده ! »

وضع الفتى فى مكانه فامتثل هذا دون مكابرة ، سأله رأفت عما سيفعل بالنسبة لدان فقال حسن إن الأمر لابد من وضعه فى يد الرجال بالقاهرة . . . لم يمنع هذا من منافشة الأمر واحتمالاته ، كان رأى الفتى - رغم حيرته وشكوكه - يميل إلى أن العقيد المتصابى يريد تغطية موافقته بحجة تحفظ له ماء وجهه ، اقترح - فى حالة موافقة القاهرة - أن يكلف الرجال واحدا من أعوانهم الأوربيين بعمل اللقاء ، طلب إليه حسن أن يجرى اتصالا مع إحدى شركات السياحة قبل عودته إلى تل أبيب حتى يؤمّن نفسه ، صحك الفتى هاتفا :

« يظهر إنها فرجت على الآخر ! »

« إزاى ؟ ! »

« أنا قبل ماجيلك عملت الاتصال ده والغربية إنى لقيت فوج صغير جاهز للسفر بعد تلات أسابيع »

ودع الرجلان كل منهما الآخر على موعد أو لقاء سوف يتحدد فيما بعد !

●●●

ظهر اليوم التالى كان حسن القطان يجلس مع « شريف والى » رئيس هيئة الخدمة السرية ومعهما عزيز الجبالى الذى بدا متحمساً للأمر حماساً لم يخفه . . . كانت التقارير التى وصلت من إسرائيل عن سجن ألوف دان رابينوفيتش . والدراسات التى تمت على تلك الشخصية تؤكد أن القائد العجوز قد استجاب ، سأله شريف والى :

« وناوى تعمل إيه فى ممثل المنظمة ياعزيز ؟! »

« أنا مش ميال للاستعانة بحد من أوربا !»

« أمال حا تعمل إيه ؟! »

« حاخليه يقابل ضابط مصرى !»

اعتدل شريف والى فى مقعده ، كما انتبه حسن القطان بكل جوارحه . . . وراح كل منهما يحملق فى الشاب الجالس أمامهما . وكانا فى انتظار تفسير لهذا اللغز الذى عرضه عليهما !!

. . . .

. . . .

عندما طرح حسن القطان المشكلة التى حملها من روما إلى القاهرة

على عزيز الجبالى قبل لقائهما مع شريف والى ، كان يرى فى الأمر خطورة محتملة ، بل تكاد تكون مؤكدة . . . لذلك ـ هكذا قال لعزيز ـ فلقد قرر أن يطير إلى القاهرة حتى لايضيع الوقت فى التراسل . . . ولقد قال عزيز الجبالى إنه لايدرى لِمَ قفز إلى ذهنه اسم المقدم « جلال شرف الدين » عندما سمع برغبة دان فى لقاء مع ممثل منظمة السلام المزعومة .

كان جلال شرف الدين ضابطاً فى القوات المسلحة ، كان من هذا النوع من الشباب المصريين الذين حباهم الله بمميزات تضاف إلى شخصية ابن البلد الخالص . . . كان طويلاً عريضاً مهندم الملابس أنيق المظهر ، فوق شعره الذهبى وشاربه الذى ورثه عن جده لأمه التى ولدت فى مقاطعة لانكشير فى غرب انجلترا ، والتى تزوجت من أبيه الطبيب فى أواخر العشرينيات من هذا القرن ، وأورثت ولدها مع الملامح الانجليزية الخالصة ، لغة انجليزية صافية . كانت الأم من عائلة مثقفة ذات مركز اجتماعى مرموق ، فجمع الفتى بين الأسلوب الإنجليزى المتحفظ ، والشخصية المصرية البسيطة فى مزيج أعطى شخصيته جاذبية لاتقاوم !

وفى هذا الاجتماع الذى جمعه مع شريف والى وحسن القطان ، والذى لم يدم لأكثر من خمس وأربعين دقيقة ، طرح عزيز الجبالى فكرته

إن الأمر بالنسبة للمقدم جلال شرف الدين لن يحتاج إلى أكثر من اتصال مع قيادة الجيش المصرى ، ثم تلقينه كمية لابأس بها من

المعلومات عن الجيش الإسرائيلى . . . ودون الخوض فى تفاصيل تمس الأمن ، فإن عليه أن يتقمص شخصية مندوب لمنظمة دولية تعمل من أجل إقرار سلام عالمى شامل ، ثم سيطرة كاملة على الرجل الذى سوف يأتيه مستعداً للإقتناع . . . بعد ذلك ، فكل ماسوف يحتاج إليه الأمر هو اختيار مكان مناسب لهذا اللقاء الذى لابد أن يعطى رأفت الهجان ثقة زائدة فى مواطنيه دون ذكر شىء ـ حتى لرأفت ! ـ عمن يكون جلال شرف الدين الذى سوف يعطى اسما أجنبيا يحتمل أن يكون من جنسيات أوربية متعددة !

هتف حسن القطان :

« بس رأفت رافض يحضر المقابلة دى ؟!»

« ليه ؟ ! »

« بيقول إنه مش مستعد يكشف نفسه لأى حد مش من الجهاز ! »

« هوه معاه حق فى النقطة دى ، بس أنا محضر له مفاجأة حاتسعد جدا ، وحاتخليه يوافق ! »

هكذا قال عزيز ، الذى كان الآن يتحرك فى ثقة بلا حدود ! !

•••

عاد رأفت الهجان إلى إسرائيل مفعما بالسعادة . . . أكثر ماأسعده هو تعاقده على هذا الفوج الإيطالى الصغير الذى سيغطى سبب رحلته السريعة إلى أوربا . . . وهو ، على الناحية الأخرى ، راح ينتظر ردا من القاهرة ، راح ـ بينه وبين نفسه ـ يتعجل وصوله !

بدت الأمور للفتى وكأنها تسير نحو استقرار طال الشوق إليه . . .
سأله إيزاك بن عميتاى أكثر من مرة عما تم فى تلك الوظيفة التى وعده بها ، فحذره الفتى من كثرة الحديث فى الموضوع ، كما نبهه إلى أن المنظمة سرية ولها فروعها فى جميع أنحاء العالم وفى إسرائيل أيضا ، كما أن لها عملاءها الذين قد لاترضيهم ثرثرته ، كما أوضح له بهالا يقبل الشك ، أن هذا العمل ليس وظيفة وإنما هو تعاون بين المنظمة وبينه . . . ولقد أكد له إيزاك التزامه بالسرية المطلقة ، قال معتذرا إنه - فقط - كان يسأل إنْ كانت المنظمة قد قبلت التعاون معه ، وكان رد رأفت أنه سيخبره حال وصول الرد ، فليس الأمر سهلا كما يتصور ، ولابد أن لهم رجالا يتحرون عنه الآن بدقة ، فعليه أن يلتزم جانب الاحترام فى تصرفاته ، وأن يتفانى أكثر فى عمله حتى يشعرهم أنه من الممكن أن يكون نافعا لهم !

ولم ينس الفتى قبل عودته من إيطاليا أن يشترى لكلارا رابينوفيتش كل ما طلبته منه ، زارهما ذات مساء فاستقبلاه فى ترحاب شديد وأصرا على دعوته للعشاء فى تلك الليلة مما سمح لدان بأن يختلى به كى يسأله - بعيدا عن زوجته - إنْ كان قد اتصل بأصدقائه . . . تجاهل الفتى سؤاله ومال عليه سائلا إياه إن كان فى حاجة إلى بعض المال ، تهللت أسارير القائد المتصابى واصطبغت بشرته بلون أحمر قان متمتما بأن ديونه أصبحت ثقيلة ، فدس الفتى فى يده بضع مئات من الليرات الإسرائيلية ، ثم انصرف بعد العشاء مباشرة !

انقضت خمسة أيام قبل أن تصل إلى الفتى برقية تطلب إليه لقاء

عاجلا وقصيرا ، كان معنى كلمة « قصيرا » أن على الفتى أن يطير إلى أثينا دون أن يخبر أحدا بسفره ، ولقد فعلها الفتى ، فلقد طار ذات صباح إلى أثينا وعاد فى المساء ، وهناك التقى بحسن القطان الذى اتفق معه على خطة سفر دان رابينوفيتش إلى الخارج .

كانت الخطة تتلخص فى أن يطير كل منهما وحده ، ويسافر دان إلى امستردام بهولندا على أن ينزل فى فندق بعينه ، وينتظر هناك لقاء لابد أن يتم مصادفة بالفتى فى موعد حدده له . . . أما رأفت ، فكان عليه أن يطير إلى بون بألمانيا الغربية ، ثم يسافر بالسيارة إلى مدينة « ديوسبورج » الصناعية ، والبعيدة تماما عن مراكز النشاطين السياسى والسرى معا . . . عندما عاد الفتى إلى إسرائيل ، انتظر يومين حتى التقى بدان ، فقال له فى أثناء ثرثرة عادية :

« لقد جاءنى الرد من أصدقائنا ! »

كاد الرجل يقفز من مكانه هاتفا :

« ماذا قالوا ؟ ! »

« لقد حددوا لك موعدا فى أمستردام بعد أسبوع ! »

انتفخ دان بالزهو قائلا :

« ألم أخبرك ؟ ! »

ابتسم الفتى مغمغما :

« لابد أنك تعرف عن هذه الأمور أكثر مما أعرف أنا !! »

«على كل . فهذه بشائر طيبة ، ولو كانت نواياهم ليست حسنه ، لما وافقوا على لقائى ! »

قال الفتى إنه تصور فى لحظة أن الرجل سوف يتفجر لفرط إحساسه بالزهو والثقة ، وهكذا راح يلقنه كيف سيسافر ، وأين سينزل وكيف سيلتقيان وماذا على كل منهما أن يتظاهر به أمام الآخرين !

●●●

عندما وصل رأفت الهجان إلى بون ، كان يعرف خط سيره بدقة ، ففى صبـاح اليوم التـالى استـأجـر سيارة وانـطلق بها إلى مدينـة « ديوسبورج » فى غرب ألمانيا ، مر فى طريقه بمدينة دسلدورف ، ووصل قبل الموعد المضروب بساعة . . . كان الطريق طويلا ممادفع الفتى إلى حجز غرفة فى أول فندق صادفه ، ولم يمكث فى الفندق أكثر من دقائق كانت كافية لأن يغتسل بسرعة ، ويعود إلى سيارته من جديد .

لم يكن صعبا عليه أن يعثر على العنوان الذى أمده به حسن القطان فى أثينـا ، ورغم الإجهـاد الشـديد ، فإن الفتى كان ممتلئا بالحماس والنشاط ، يملؤه إحساس غامر بالرضا . . . كان يعرف أن العلاقة بينه وبين حسن القطان قد تحسنت كثيرا ، ولقد قرر أن يسأله فى تلك الليلة عن نديم هاشم . . . كان نديم يلح عليه طوال الطريق ، كما كان يلح على ذهنه كلما أحرز نجاحا أو خطا خطوة إلى الأمام ، أليس هو الذى دربه على تلك الأساليب الجديدة والحديثة ، أليس هو الذى فتح له آفـاقـا ما كانت تخطر ببـالـه ؟ ! . . . قال عزيز الجبالى بعد سنوات طويلة ، إن رأفت الهجان تميز دائما بمصريته المفرطة ، كان يجل كل من علمـه شيئـا إجلالا يفوق الخيال ، ولذلك فلقد قاده تفكيره فى هذا الأمر ، إلى أن أحسن مايمكن أن يقدم للفتى فى مثل تلك الرحلة ـ

التى بدأت فيها ملكاته تتفتح ـ هو إعداد تلك المفاجأة السعيدة التى واجهت الفتى على غير انتظار فى تلك المدينة الألمانية القليلة الشهرة !

كان موعده مع حسن القطان فى ڤيلاّ تتوسط حديقة نسقت بعناية فائقـة ، وهو عندما وصل إلى العنوان قام ـ كالعادة ـ بإجراءات أمنه حتى اطـمئنان ، خطا إلى الحـديقـة فعـبرها ودق الباب فى الموعد تماما وحسب الكود المتفق عليه . وعندما سمع الخطوات خلف الباب تهيأ لملاقاة حسن ، ولكن . . . ما إن فتح الباب حتى وجد أمامه « محسن ممتاز » ! !

بهت الفتى ، جمدتـه المفـاجأة فى مكانه فإذا به تمثال من الدهشة الممزوجة بسعادة لا حد لها ، راح رأفت يحملق فى أستاذه الذى غاب عنه سنوات ظن بعدها أنه لن يلقاه أبدا ، اجتاحت ملامح رأفت تلك المشاعر التى راحت تتلاطم فى صدره فإذا به يهتف بصوت اختنق بالفرحة :

« محسن بيه ؟ ! »

ضحك محسن وهو يجذبه إلى الداخل قائلا :

« أنا علمتك كده برضه ؟ ! »

أدرك الفتى أن وقفته بالباب وذهوله ليسا من وسائل الأمن الكامل ، همَّ بالرد لكن محسن كان قد أغلق الباب وفتح ذراعيه فارتمى رأفت فى صدر أستاذه الأول وراح كل منهما ينظر إلى الآخر فى مودة دفعت بالدمع إلى عيونهما معا . . همس الفتى وهو يمسح دمعه :

« مين اللى عمل المفاجأة الحلوة دى ؟ ! »

« شغلك الكويس يا رأفت ! »

« أنت عارف انت واحشنى قد ايه ؟ ! »

« أكيد عارف لأنك واحشنى بنفس القدر ! »

همَّ الفتى بالحديث لكن عاطفته الجياشة أوقفت الكلمات فوق شفتيه مختنقة ، برقت عينا محسن وهو يتلقى ذلك الفيض من المشاعر فى ثبات ، لكنه لم يلبث أن قال :

« جرى إيه يارأفت ، مش تسلم على الراجل ؟ ! »

انتبه رأفت الهجان إلى وجود حسن القطان الذى هتف ممازحا :

« إذا حضر الماء ، بطل التيمم ! »

عندما صافح رأفت حسن ، شد على يده فى حرارة قائلا :

« أنا متشكر قوى على المفاجأة الحلوة دى ! »

هتف حسن :

« ماتشكرنيش ،نا ! »

« أياً من كان اللى عملها ، اشكره بالنيابة عنى من فضلك ياحسن بيه ! »

. . . .

« قال رأفت الهجان بعد ذلك بسنوات : إنه فى ذلك اليوم بالذات ، داخله إحساس غريب وغامض بأن ثمة من يقف وراءه ، ومن يحاوره فى كل مايقوله أو يذهب إليه ، ومن يوجهه إلى حيث يجب أن يتجه ومن يحميه ويسهر على سلامته . . . وإن هذا الإحساس ، ظل يتأكد لديه يوما بعد يوم ، حتى

أصبح بعد سنوات يقينا طالب بعده بلقاء مع « هذا الرجل » . . . وإن طلبه تحول إلى إلحاح ، ولكن هيهات ! ! »

. . . .

. . . .

فى تلك السهرة الحميمة التى جمعت الفتى بأستاذه الأول فى هذا الفن الذى تفوق فيه ، بعد انقطاع دام لأكثر من ثلاث سنوات ، تم وضع الترتيبات النهائية للقاء سجن ألوف دان رابينوفيتش مع مستر « جريج »

« مين جريج ده ؟ ! »

هكذا سأل رأفت ، وكان الحوار دائراً بينه وبين حسن القطان ، فهتف محسن محذرا

« جرى ايه يارأفت ، مش عيب تسأل سؤال زى ده ؟! »

أقسم حسن بعد ذلك أن حمرة الخجل صبغت وجه هذا الفتى المتمرد كأى تلميذ أخطأ فى درسه . . . لم يكن مفروضا أن يسأل الفتى أو حتى يحاول أن يعرف من هو مستر « جريج » هذا . . . فثمة مبدأ مهم من مبادىء علم المخابرات تلتزم به مدرسة بعينها التزاما صارما ، مبدأ يقول إن « المعرفة على قدر الحاجة » ، ولم تكن هناك حاجة بالفتى إلى أن يعرف شيئا عن هذا السيد الأوربى القادم للقاء العقيد المتصابى سوى أن اسمه « جريج » وكان خطأ أن يسأل الفتى عمن يكون !

عادت المناقشة إلى مجراها فحاول رأفت التنصل من وجوده فى هذا اللقاء المرتقب ، متعللا بأنه يخشى من لقاء الغرباء الذين قد يتصادف

زيارتهم لإسرائيل أو الالتقاء به فى أوربا على غير موعد فى ظروف غير مواتية فيسببون له كارثة ، فما كان من محسن ـ الذى لم يتدخل فى الحوار إطلاقا ـ إلا أن قال فى اختصار بالغ :

« ماتخافش يارأفت ! »

فانتهت المناقشة ! وكف الفتى عن التنصل ، وانتهى الأمر بالتأكيد على بعض الأشياء التى يراها الرجال ضرورية . . . حتى فوجىء رأفت بمحسن القطان وهو يقول له :

« وفهم الراجل إنك مش حاترجع إسرائيل إلا بعد أسبوع ! »

«ازاى بقى ؟ ! »

« زى الناس !»

« مش ممكن . . . أنا لازم أرجع علشان أحضرّ لـ . . . . »

حانت من الفتى فى أثناء حديثه نظرة نحو محسن فأوقفته عينا هذا عن الكلام فتذمر :

« محسن بيه . . . أصل الـ . . . . »

لكنه لم يكمل ، كانت عينا محسن ترسلان إليه تحذيرا آخر ، فابتسم مستسلما وهو يقول :

« حاضر يا آبيه ! ! »

وانفجر الثلاثة ضاحكين !

وانقضت الليلة فى حديث حميم حول حياة الفتى فى تل أبيب ، حديث تخللته تحذيرات من محسن ممتاز لرأفت الهجان بأن يبتعد بقدر

الإمكان عن النساء ، وكان الفتى يراوغ من حقائق كان موقنا من أن أستاذه واثق منها كل الثقة !!

لكن الغريب فى الأمر . . . أن رأفت الهجان عندما عاد إلى فندقه فى تلك الليلة ، اتصل بالفندق الذى حجز فيه غرفة فى بون وكانت لاتزال باقية باسمه ، فوجد فيه برقية من « يهوديت موردخاى ـ سكرتيرته ـ تطلب إليه فيها الاتصال بإحدى شركات السياحة الفرنسية ، وما إن أجرى الاتصال ـ فى صباح اليوم التالى ـ حتى وجدهم يطلبون إليه التوجه إلى باريس لمناقشة عقد لإرسال عدد من الأفواج الفرنسية إلى إسرائيل على فترات تمتد من الربيع وحتى آخر الصيف ، فاستجاب الفتى بالطبع ، وحدد لهم موعدا وقد امتلأت نفسه بالتساؤل عما يخبئه له الرجال فى باريس ، لكنه أبدا ، لم يصل إلى استنتاج ، أو حتى تخمين !

●●●

تصادف أن نزل السيد ديفيد شارل سمحون عندما وصل إلى أمستردام ـ بعد يومين من ذلك اللقاء الذى تم فى مدينة « ديوسبورج » الألمانية ـ فى نفس الفندق الذى اختار سجن ألوف دان رابينوفيتش النزول فيه فى اثناء زيارته لهولندا . . . غير أنهما لم يلتقيا فى نفس اليوم ، ولكن حدث فى عصر اليوم التالى لوصول السيد سمحون ، أن التقى الاثنان أمام مكتب استعلامات الفندق . . . كانت الساعة تشير إلى

الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر عندما واجه كل منهما الآخر بصيحات دهشة واضحة ، وجاء لقاؤهما عاصفا لفت أنظار موظفى الفندق الذين تبادلوا الابتسام لتلك المصادفة التى أسعدت العميلين المحترمين . . . وتصادف أيضا أن كلا منهما لم يكن مرتبطا بأية مواعيد بعد ذلك ، لذا . . . فلقد توجها إلى بار الفندق لتناول كأس احتفالا بهذه المناسبة !

بدا الفتى متألقا أشد مايكون التألق فى أمستردام ، راح يحكى لصديقه ، بصوت سمعه البارمان بوضوح ، أن مجيئه إلى هولندا لم يكن فى خطته ، لكنه جاء بناء على طلب إحدى الشركات الهولندية التى طرحت عليه تبادل الأفواج فيما بين إسرائيل وهولندا ، كما تحدث دان عن أقاربه الذين جاءوا من إحدى دول الكتلة الشرقية للقائه بعد غيبة طالت لسنوات . . . احتسيا كأسيهما ثم غادرا الفندق للتريض فى شوارع الميناء الهولندى وحتى يتحدثا بحرية أكثر فيما جاءا من أجله . . . دار الحديث حول الموعد الذى تحدد فى مغرب اليوم التالى مع رجل اسمه « جريج »

« من أيه جنسية هو؟! »

هكذا سأل دان ، فرد عليه الفتى متذمرا :

« لست أدرى ، فهم لم يذكروا عنه شيئا سوى هذا الاسم الذى اعتقد أنه ليس اسمه الحقيقى ! »

ضحك القائد الإسرائيلى مربتا على ذراع ديفيد :

« بدأت تتعلم ياصديقى . . . بدأت تتعلم ! »

قال له الفتى إن اللقاء حدد له نصف ساعة فقط ، فالرجل على مايبدو لديه الكثير من المشاغل ، ثم ألمح بأنه احتج لديهم بأن الوقت قد لايتسع للإجابة عن الأسئلة التى يريدسجن ألوف أن يلقيها ، لكنهم لم يستمعوا لاحتجاجه ، وعلى ذلك . . . فلقد راح ديفيد ينصح صديقه بضرورة استغلال كل دقيقة من تلك الدقائق الثلاثين فى معرفة هوية هؤلاء الناس وغرضهم الحقيقى ، وعندما سأله دان عن مكان اللقاء ، أبدى السيد سمحون تبرمه من أسلوب هؤلاء الناس ، فلقد انبئوه أن المكان سوف يتحدد فى الغد وقبل الموعد بساعة واحدة ، وأنهما لن يذهبا معا ، بل سيذهب كل منهما على حدة ، وحسب مسار سوف يتحدد مع تحديد المكان . . . قال الفتى هذا ثم غمغم فى ضيق :

« لست أدرى لِمَ كل هذا التعقيد ؟ ! »

فحاول دان رابينوفيتش أن يهدىء من سخط صديقه قائلا إن هذه هى طبيعة العمل السرى ، وإنه ليس هناك مايدعو إلى التبرم أو التذمر . . . بل على العكس ، فالمفروض أن يسعدا لكل هذه الاحتياطات التى تحميهم من الفضوليين !

راح الفتى يستمع إلى القائد الذى كان يتحدث منتفخ الأوداج وهو يلقنه « أصول الشغل » مردفا بأن كل هذه الحيطة تبعث بالفعل على الاحترام بل والثقة . ثم طمأن صديقه مستطردا :

« وعلى كل فلا تقلق أيها العزيز ديفيد وانتظر حتى يأتى الغد ، فلسوف أعرف حقيقة أهدافهم فى الدقائق الأولى للقائى مع هذا الـ « جريج !! »

ولم يرد رأفت ، ترك الرجل لغروره الفادح ، ثم دعاه إلى العشاء ، وقضيا فى إمستردام أمسية كانت رائعة بحق ، فلقد أنست هذه الأمسية القائد المتصابى ، زوجته الحسناء تماما ! !

●●●

تتميز أمستردام بتلك المبانى الغريبة التكوين على أبناء الشرق وبعض أبناء الغرب ، والتى تفتح شققها على الشارع مباشرة . . . فكل باب من تلك الأبواب العديدة التى يراها السائح فى تلك البنايات ، يفضى إلى المسكن مباشرة . . . فى إحدى هذه البنايات القائمة فى أحد أحياء أمستردام المتوسطة ، باب يحمل رقم ٧ ، ولقد شهد هذا الباب فى مغرب اليوم التالى زائرين وصل أولهما قبل الثانى بنحو عشر دقائق لاتزيد . . . كان الأول نحيلا متوسط الطول ، متأنقا ، ذا خطوات تشى بأنه عسكرى بالرغم من ملابسه المدنية . . .

عندما وصل الرجل ـ الذى لم يكن سوى سجن ألوف دان رابينوفيتش ـ إلى المكان ، ألقى بنظرة إلى اسم الشارع ، ثم تقدم فى خطوات حتى وصل إلى تلك البناية ، وسار بحذاء الأبواب المتقاربة ثم توقف عند الباب رقم ٧ . . . دق على الباب دقتين متتاليتين ، تبعتهما دقة واحدة ، مالبث الباب بعدها أن فتح ليظهر خادم أوربى بدا للعقيد الإسرائيلى أطول مما ينبغى ، وأنحف من المفروض أن يكون عليه جسد بهذا الطول .

قال دان :

« اعتقد أن السيد جريج فى انتظارى ! »

« ومن تكون ياسيدى ؟ ! »

« صديق من الشرق الأقصى ؟ ! »

ما إن تفوه دان بتلك الجملة الأخيرة ، حتى أفسح له الرجل الطريق :

« تفضل بالدخول ياسيدى ! »

دلف دان إلى الداخل ، فأغلق الباب فورا !

. . . .

. . . .

فى البناية المقابلة كان رأفت الهجان يقف خلف زجاج إحدى النوافذ التى اسدلت عليها ستارة خفيفة تخفى من يقف خلفها ، وإن كانت لاتخفى مايجرى فى الطريق . . . بجواره كان يقف حسن القطان وهما يرقبان ما كان يجرى ، حتى إذا ما أغلق الباب ، التفت كل منهما نحو الآخر ، فبادره حسن بقوله :

« استنى دقيقتين ! »

أشعل الفتى سيجارة ، وراح يخطو فى الغرفة جيئة وذهابا ، حتى إذا مضت الدقيقتان قال حسن :

« ياالله يارأفت ! »

أطفأ الفتى سيجارته ، وانصرف مسرعا !

. . . .

. . . .

عندما دخل دان رابينوفيتش ذلك المسكن الهولندى يتقدمه الخادم الذى أعلن قدومه قائلا :

« لقد وصل الضيف ياسيدى ! »

حتى طالعه على الفور جسد طويل القامة منسق الأعضاء ذو شارب رقيق وشعر فى لون الذهب . . . وكان مستر جريج يرتدى بذلة إنجليزية الصنع والطراز ، يضع بين أسنانه غليونا يتصاعد منه الدخان بلا توقف . . . هتف المستر جريج مرحبا :

« أهلا أيها الصديق ، تفضل ! »

ما إن جلس دان ، حتى أطل عليه مستر جريج من أعلى متسائلا إن كان يرغب فى مشاركته فنجانا من الشاى ، فوافق دان على الفور ، واتخذ الرجل مكانه فى مواجهته بعد أن أمر بالشاى ، ثم قال :

« لقد قيل لنا أنك تريد لقاء واحد منا ! »

« هذا صحيح تماما ! »

« ها أنا ذا أمامك ، تستطيع أن تسأل ! »

« كنت فى حقيقة الأمر أريد أن أعرف نوع المعلومات المطلوبة ! »

وضع الرجل ساقا فوق ساق ونظر إلى دان نظرة متعالية وهو يقول :

« إذا كنا نعمل من أجل سلام دائم فى العالم كله ، فلابد أن تكون حاجتنا إلى المعلومات العسكرية أهم من غيرها كى نستطيع وقف أى تهور قد يحدث نكبات بلا حدود ! »

« وأى نوع من المعلومات العسكرية تريدون ؟ ! »

« لو أننى أعطيتك مثلا ، فلسوف أقول إن . . . . »

توقف الرجل عندما سمعا دقا على الباب فى نفس الوقت الذى ظهر فيه الخادم وهو يدفع عربة الشاى أمامه . . . مالبث الرجل الفارع الطول أن ترك العربة فى منتصف الطريق ، وذهب كى يفتح الباب ،

ولم ينتبه دان رابينوفيتش إلى أن عربة الشاى كانت مجهزة لثلاثة أشخاص لا لشخصين ، وسرعان ماوقف المستر جريج لاستقبال السيد ديڤيد سمحون هاتفا :

« هالو ديڤيد . . . . كيف أنت ! »

« كل شىء على مايرام أيها العزيز جريج ! »

هكذا رد الفتى ثم استدار نحو دان باسما :

« أرجو أن يكون التعارف قد تم بينك وبين صديقنا العزيز دان ! »

اتخذ كل منهم مكانه . ووصلت عربة الشاى إلى جوار مستر جريج الذى قال للخادم :

« أشكرك ، سوف أقوم أنا بخدمة السيدين ! »

انحنى الخادم فى احترام وانصرف فى صمت وبدأ جريج يعد الشاى مستطردا :

« كنا نتحدث أيها العزيز ديڤيد عن نوع المعلومات المطلوبة ، وكنت فى سبيلى لإعطاء مثل على مانريد . . . ولابد أنك تعرف أيها السيد العقيد رابينوفيتش أن إسرائيل ـ على سبيل المثال ـ لديها لواءان عاملان فقط ، عدا الاحتياطى بطبيعة الحال : هما الجولانى والجفعاتى !»

فغر دان فمه دهشة وهو يتناول فنجان الشاى الذى قدمه له الرجل مردفا :

« ولكن يبدو أنكم فى الأيام الأخيرة ، ربما بعد حرب السويس بالتحديد ، قد رأيتم أن هذين اللواءين ليسا كافيين الآن . . . ولقد انتصر الرأى الذى يقول بضرورة البدء فى إنشاء وحدات جديدة ،

وبالفعل فلقد تم إنشاء بعض تلك الوحدات مثل . . . . »

توقف الرجل عن الحديث مقدما فنجان شاى لديڤيد ، وكان يبدو على دان أنه أخذ بتلك المعلومات ، لكن دهشته كانت تتزايد لحظة بعد أخرى عندما استفاض مستر جريج فى الحديث عن تلك الوحدات الجديدة وإعدادها وتسليحها وإمكاناتها وأوجه القصور فيها ومناطق تدريبها . . . ثم انثنى إلى سلاح الطيران الإسرائيلى فعدد له أسراب الميستير وأسراب الميراج ، ثم تناول تلك المفاوضات التى دارت فى باريس أخيرا . . . و . . . ويبدو أن الرجل كان مقنعا إلى الحد الذى دفع سجن ألوف دان رابينوفيتش إلى أن يهتف :

« كل هذا صحيح تماما ياسيدى ! »

« كما ترى . . . فالمعلومات التى تلزمنا ليست خاصة بالأشياء العادية ، فهذا فى واقع الأمر لا يعنينا كثيرا ، لكن الذى يعنينا هو المعلومات الاستراتيجية التى تساعد على إقرار السلام بين الدول ! »

تساءل دان فجأة :

« وماذا عن المصريين ؟ ! »

« إن لدينا العديد من الأصدقاء فى العالم العربى ! »

« هل تعتقد أنكم سوف تستطيعون إبعاد شبح الحرب عن المنطقة ! »

« سنستطيع بقدر ما يتوافر لنا من معلومات ! »

« هذا مفهوم طبعا ! »

« ولسوف يكون صديقنا ديڤيد هو ضابط الاتصال بيننا وبينك ! »

« بالتأكيد ! »

« ثم إن هناك بعض الأمور الخاصة بالأمن ، وهذه سوف يتولاها صديقنا المشترك ! »

« إنى مدرك لهذا تماما ! »

« وهناك أيضا بعض الأسئلة التى نرجو أن تكون الإجابات عنها وافية ! »

« ثق ياسيدى أنى سأبذل قصارى جهدى ! »

كان كل من الرجلين ـ دان وديڤيد ـ يتفرس فى السيد جريج هذا ، بدا الرجل واثقا من نفسه ثقة بلا حدود . . . راح يتحدث بنبرة ثابتة ولغة إنجليزية راقية ، كما بدا مزودا بكم هائل من المعلومات عن الجيش الإسرائيلى جعل سجن ألوف يسلم بأنه بالفعل يعلم الكثير . . .

مضى نصف الساعة فنظر الرجل فى ساعته ، ومالبث ديڤيد أن نهض وتبعه دان الذى صافح الرجل فى حرارة قائلا إنه سعد حقا بهذا اللقاء ، وإنه يعد بالتعاون معهم إلى أقصى الحدود . . . وإذا كان دان أتى قبل وصول ديڤيد ، فلقد انصرف بعده بدقائق ـ هكذا اقترح الرجل ـ كى يلتقى الصديقان فى ردهة الفندق بعد ساعتين من مغادرتها للباب رقم ٧ . . . وكان أول ما قاله دان لرأفت :

« ديڤيد . . . إنهم يعلمون الكثير عنا ! »

ضحك رأفت قائلا :

«الحقيقة أنى لم أفهم كلمة مما كان يقول ! »

« أمر طبيعى . . . ولكنى موقن أن هذا الرجل ليس إنجليزيا كما كان يحاول أن يتظاهر ! »

« تُرى . . من أية جنسية هو؟ ! »

« إنه سويدى . . . أراهن بعمرى ! »

. . . .

. . . .

عندما نقل رأفت الهجان هذا الحوار لحسن القطان ، ابتسم هذا سائلا أياه :

« وانت رأيك برضه إنه سويدى يارأفت ؟ ! »

« إطلاقا ! »

« امال ايه ؟ ! »

« ده مصرى ابن مصرى ! »

ولم يعلق حسن ، ولم يرد . . . وراح الرجلان يناقشان خطة المرحلة المقبلة واحتياجاتها وكيفية الاتصال ، أعطاه حسن حبرا سريا جديدا سرٌ له الفتى سرورا بالغا ، لكنه سأل فجأة :

« إيه حكاية فرنسا دى ؟ ! »

لم يناور حسن هذه المرة ، بل قال على الفور :

« إنت مش حاتروح باريس بس ! »

« امال ايه ؟ ! »

« انت حاتطلع من هنا على باريس ومن باريس على مونت كارلو ، ومن مونت كارلو على مدريد ، ومن مدريد على مصر ! »

جاءت كلمة مصر كقنبلة انفجرت فأذهلت الفتى لثوان .

« مصر ؟ ! »

« انت مش بتقول أن شريفة واحشاك ؟ ! »

فاض قلب الفتى بالحنان وراح يحملق فى وجه حسن وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وإن كانت الابتسامة تملأ وجهه !

الفصل الثالث

عشرة أيام فى القاهرة

تلك مرحلة كانت شديدة الخطورة فى حياة رأفت الهجان ، فمنذ أن التقى بنديم هاشم فى جنوا ، وبحساب الزمن الذى انقضى مع الخطوات التى تقدم بها فى مهمته ، بدا الأمر لعزيز الجبالى مرضيا بكل المقاييس . . . ولم يكن ممكنا أن يشعر الفتى بمدى التقدم الذى كان يحرزه ـ كما أنه بالقطع ، ومع نجاحاته المتوالية ـ لم يكن ممكنا أيضا أن يشعر بمدى الخطورة التى تكتنف تلك الخطوات . . . ولقد فكر عزيز الجبالى فى أن إحساس الفتى بالنجاح قد ينسيه حذره الكامن والأصيل ، لذلك . . . فلقد وجد ـ ومع ظروف أخرى أحاطت بالأمر فى القاهرة ـ أنه لابد من شيئين أساسيين .

كان الشىء الأول هو ضرورة مكافأة الفتى على ما أنجز . . . ولم تكن هناك مكافأة أكبر ولا أثمن من رؤيته لأهله ووطنه وأحبابه الذين انقطع عنهم مايقرب من ست سنوات .

أما الشىء الثانى فهو أن الفتى كان فى حاجة إلى إجازة يسترخى فيها استرخاء كاملا ، إجازة يلقى فيها بكل شىء خلف ظهره ،

وينسى بحر المخاطر الذى يخوض فيه ولو لأيام لاتتعدى العشرة .

كانت العملية أمام عزيز الجبالى تأخذ الآن شكلاً يكاد يكون متكاملاً ، فلقد أنشأ الفتى شبكة نموذجية من الأعوان الذين يستطيعون إمداده - فيما هو قادم من سنوات - بالكثير مما يلزم الوطن عن العدو . . . كانت هناك الشبكة العسكرية المكونة من ثلاثة هم : بيخور شطريت السكير ، ودان رابينوفيتش المتصابى ، وإيزاك بن عميتاى المقامر . . . وإذا كان الأول يستطيع إمداد الفتى بمعلومات عن التسليح والتموين فى الجيش الإسرائيلى ، فإن دان يستطيع أن يمده بتلك المعلومات الاستراتيجية الشديدة الأهمية والخطورة ، والتى تحدد توجهات إسرائيل العسكرية فى المدى القريب والبعيد على السواء . . . أما إيزاك بن عميتاى ، فلقد كانت المعلومات التى أمد بها الفتى فى الشهور التى انصرمت - دون قصد منه بالطبع - تدل دلالة قاطعة ، وبعد التيقن منها واختبار صدقها - على أنه يستطيع أن يمد الأمة بقدر عظيم من المعلومات عن سلاح الجو الإسرائيلى .

فوق كل هذا ، كانت هناك تلك الشبكة من المدنيين وأصحاب المناصب السياسية والنقابية الذين كان بيت سيرينا أهارونى يمتلىء بهم فى كل مساء - خاصة فى مساء السبت من كل أسبوع - والذين كان الفتى قد استطاع بالفعل وخلال شهور قليلة ، أن يكون البذور الأولى لثلاث مجموعات منهم . . . المجموعة الأولى علمية ، وتضم بعض العلماء وأساتذة الجامعة والباحثين ، وشبكة اقتصادية تضم بعض رجال المال والأعمال ، ثم تلك الشبكة السياسية الشديدة الأهمية ، والتى كانت تضم ، مع السيدة سيرينا أهارونى نفسها ، مجموعة منتقاة من

السياسيين ورجال الأحزاب ، والأهم منهم . . . رؤساء الشُّعَب فى المستدروت !

« باءت كل محاولاتنا لمعرفة بعض أسماء تلك المجموعات بالفشل الذريع ، ولقد اتخذ الأمر صورة حادة عندما قيل لنا بوضوح وحسم : إن الأسماء لاقيمة لها ، وإن التوثيق الذى نصبو إليه ، قد تم فعلا فيما ذكر وما سوف يذكر من أحداث ، وعلى كل . . . فإن هذا الرفض الصارم لابد أن يدفعنا إلى التفكير فى الأمر بقليل من التمعن والروية ! »

كانت الصورة تبدو مكتملة تماما ، بل تبدو نموذجية فى تكوينها وتنظيمها ودقة الحركة فيها ، هنا . . . تجلت قدرات رأفت الهجان الفذة فى السيطرة وامتصاص المعلومات امتصاصا خفيا لايثير الشك أو الريبة ، وكان اندفاعه الصاروخى فى إتمام كل هذا فيما لايزيد على العام وبعض العام ، يكلفه - دون شك - جهدا يفوق طاقات أى إنسان مهما بلغت قدرته على الاحتمال !

بالرغم من ذلك لم يكن هذا هو كل شىء ، كانت هناك تلك الظروف التى تحيط بالفتى فى مصر ، وبالتحديد ، كانت هناك شقيقته شريفة الهجان !

ففى الوقت الذى كان الفتى يقطع فيه تلك الخطوات التى كتب عنها عزيز الجبالى فى تلك الأوراق التى كتبها عن العملية يقول :

« . . . . تلك خطوات شديدة الخطر بالغة

الخطورة ، إنها خطوات سوف تنقل ديڤيد من مرحلة إلى أخرى ، ومن موقف إلى آخر ، بل من حياة إلى حياة تختلف ! » . . . فى ذلك الوقت كان من الممكن أن تحدث كارثـة بالمعنى الحـرفى للكلمة ، ذلك أن شريفـة الهجان أعلنت العصيان ، وراحت تطالب صديقه المزعوم - والذى أطلق على نفسه اسم سهيل ، والذى كان يحمل لها خطاباته - بمعـرفـة كل شىء عن أخيهـا . . . أين هو ، ومـاذا يفعل ، وماذا يعمل ، وما مصدر المال الذى يرسله إلى ولدها ، وكيف يعيش ، وأين يعيش ؟ ! . . . كانت كعـادتها مهذبة مؤدبة خافتة الصوت ، لكنها أيضا كانت - مثل شقيقها الغائب - شديدة العناد ، إذا ماخطت خطوة فى طريق ما ، فلابد لها من السير فيها حتى النهاية ! !

فى بداية الأمر تظاهرت شريفة بالاستكانة لمنطق السيد سهيل الذى كان يزورها أحيانا بملابسه الرسمية ، كما تظاهرت بالاقتناع بما كان ينقله إليها من أنباء عن شقيقها الذى يلتقى به فى سفراته المتعددة إلى بعض عواصم أوربـا . . . حتى إذا كانت مرة ، سلمهـا خطابا من الفتى ، وراحت هى - كالعادة - تسأل عن أحواله وصحته ، والشاب يرد عليها تلك الردود التقليدية التى لُقن إياها فى دقة ، وإذا بها تهتف فجأة وعلى غير توقع أو انتظار :

« وأنا ايش عرفنى أن الكلام اللى انتوا بتقولوه ده صحيح ؟!»

بهت سهيل وهو يهتف :

« إحنا ؟ ! . . . إحنا مين ؟ !»

« إنتوا . . . إنتوا !! »

« مش فاهم ! »

« لأ فاهم ! »

كان ردها حاسما فصمت الشاب ، لم يكن هناك مايمكن أن يقوله ، لكنها هى الأخرى لزمت الصمت ، ومضت بهما الثوانى ثقيلة بطيئة حتى قال سهيل :

« طيب إيه اللى ممكن أعمله لسيادتك ؟ !»

« تطمنى عليه ! »

« مانا باطمنك عليه ! »

« كلام . . . ده كله كلام !»

ولم يكن هناك مايمكن أن يقوله ذلك الشاب سوى أن يعدها بنقل رسالتها إلى شقيقها فلم ترد عليه . . . فقط ، رمته بنظرة شك جعلته يغادرها مهرولا !

ولقد وصل هذا الحوار إلى عزيز الجبالى فى الوقت الذى كان غارقا فيه لأذنيه فى تتبع رحلة الفتى إلى بريطانيا كى يلتقى بحسن القطان فى بلدة « فالكون وود » بمقاطعة كنت فى جنوب إنجلترا !

فقبل أن يلتقى حسن القطان بالفتى بساعات معدودة ، وصلت إلى لنـدن برقية كانت السبب المبـاشر فى ذلك السؤال الذى سأله حسن لرأفت ، بعـد انتهـائهما من العمل ، إن كان يريد أن يكتب خطابا لشريفة ، ثم . . . فى كل تلك التلميحات التى راح يلقنه إياها وهو يتظاهر بتقليب صفحات تلك المجلة المصورة ، والتى كان أهمها على الإطلاق ، هو قول حسن لرأفت :

« قول لها إن كانت عاوزه تكتب لك جواب ، تكتبه وتديه لسهيل باتع ! »

ولقد وصل هذا الخطاب إلى شريفة التى كانت موقنة من أن الخط هو خط أخيها ، ولذلك فلقد كتبت خطابا مقتضبا ما إن قرأه عزيز الجبالى حتى ابتسم إعجابا ودهشة . فلقد كان الخطاب يتحدث عن أمور عائلية وشديدة الخصوصية ، أمور لايستطيع الحديث فيها سوى شخص واحد فى هذا الكون ، هذا الشخص هو رأفت الهجان نفسه ! !

« مرة أخرى فشلنا فى الحصول على أى من هذه الخطابات رغم المحاولات العديدة التى وصلت إلى حد الإلحاح ، بحجة أنها سلمت إلى رأفت ، وأن خطابات رأفت سلمت إلى شريفة ، هذا . . . رغم يقيننا من أنهم لابد يحتفظون بكل نسخة من هذه الخطابات دون التفريط فى واحد منها . . . وحتى الآن ، فإننا لم نصل إلى سر التمسك بالسرية فى أمر كهذا ! ! ! »

وعلى كل . . فلقد وصلها الرد ، وكان ردا واضحا غير قابل للشك فى أن رأفت هو كاتبه ولا أحد سواه . . . كان عزيز يمضى بالفتى خلال عنق زجاجة تحسب فيه الخطوة ألف مرة قبل أن يدعه يقدم عليها ، ولذلك ، وعندما زارها سهيل باتع يحمل رد شقيقها على خطابها ، كان مزودا بتعليمات جديدة ، فلقد أدرك عزيز أنه حتى هذا الرد لن يزيل قلقها . ولن يثنيها عن عزمها إذا ماكانت قد اعتزمت

شيئا . وهو ـ فى تلك الأيام ـ لم يكن يطلب سوى مهلة حتى تتم فيها كل تلك الخطوات الخطيرة فى إيقاع متصل لا انقطاع فيه !

تسلمت شريفة رد رأفت فى صمت ، أخرجت الخطاب من الظرف وأهملت النقود ـ أبدا لم يحدث أن أرسل رأفت لشقيقته خطابا دون هدية منه لولدها طارق ـ وما إن انتهت من قراءته حتى رفعت رأسها نحو الشاب وحدجته بنظرة ثابته ، فابتسم قائلا :

« إن شاء الله تكونى اتطمنتى ! »

ولكن شريفة لم ترد عليه . وضعت الخطاب فوق المنضدة التى تفصلها عنه ، ثم اختفت داخل الشقة دون كلمة . . . أحس سهيل بخيبة أمل فلقد كاد يخبرها بما لُقن إياه فى صباح اليوم من أنباء جديدة ، وهو . . . لم يكن يعلم عن الأمر كله شيئا سوى هذا الذى يردده على مسامع شريفة ، أما من هو رأفت الهجان وماذا يصنع وأين هو وما إلى ذلك ، فهو لم يكن يعرف شيئا على الإطلاق ، استشعر الحرج مع الخطر لكن غيبتها عنه لم تطل ، فسرعان ماعادت تحمل ظرفا كبيرا يحوى كل الخطابات التى وصلتها من أخيها ، وكل النقود التى أرسلها . . . أخرجت الخطابات ووضعت الظرف الملىء بالنقود أمامه دون كلمة . . . فغر الشاب فمه دهشة :

« إيه ده يامدام ؟ ! »

« دى كل الفلوس اللى جاتنى من ساعة صاحبكم اللى جالى أول مرة وألف لى حكاية صاحبه اللى بيشتغل فى السعودية لحد آخر قرش جبته معاك النهارده ! »

« مش فاهم ! »

كان سهيل صادقا ، كما كان الحديث حتى تلك اللحظة هادئا ، لكنها صاحت مختنقة بالعبرات :

« مش عاوزه الفلوس دى ؟ ! »

هم بالنطق فأجهشت :

« أنا عاوزه رأفت ! »

« ماهو ضروى حاييجى ! »

« امتى ؟ ! »

« أصل الظروف . . . . »

« ظروف إيه ؟ ! »

« أنا حاقول لك بصراحة ! »

وراح سهيل يحكى لها عن ذلك العمل الشديد الأهمية الذى يقوم به رأفت على مستوى عال فى الدولة !

« دولة ؟ ! »

هكذا صرخت مكذبة .

« أيوه الدولة ياهانم ! »

« مين فى الدولة يعنى ؟ ! »

« ممكن تقولى على أعلى مستوى ! »

« على مستوى جمال عبد الناصر مثلا ؟ ! »

« ليه لأ ؟ ! »

« طب أنا حاروح للريس بنفسى وأسأله ! »

كان الموقف عصيبا ، ولم يكن سهيل فى حقيقة الأمر - أو هكذا

تصور - مستعدا لمواجهة بهذا السفور والوضوح ، لكنه راح يقاوم مكملا تلك الخطة التى لُقن إياها فى الصباح :

« بالشكل ده أنا مصطر أقول لك الحقيقه ، بس مش قبل ماتوعدينى . . . . »

« بإيه ؟ ! »

« إن الأمر يفضل سر بينى وبينك لأنه يمس أمن الأستاذ رأفت شخصيا ! »

« إنت نسيت إنه أخويا ؟ ! »

اعتدل فى جلسته متخذا سمة من سوف يدلى بتصريح خطير :

« شوفى ياشريفة هانم . . . الأستاذ رأفت بصراحة بيشتغل مع ثورة الجزائر ! »

هتفت ضاربة فوق صدرها :

« إيه ؟ ! »

« حلمك علىَّ شوية . هو مش بيحارب ، إنما بيقوم بعمليات خاصة لمساندة الثورة الجزائرية ! »

كانت ثورة الجزائر فى تلك الأيام تتوهج فى ذروة الدنيا مثالا لنضال شعب وتضحياته وصموده من أجل الاستقلال ؛ ولقد ظن سهيل وهو يدلى بما كان يدلى به أنه سوف يحسم الأمر تماما ، لكن المفاجأة جاءته مذهلة :

« برضه خدوا فلوسكم ، أنا مش عاوزاها ، أنا عاوزه أخويا ! »

« ماهو . . . . »

« من غير ماهو . . . أنا عاوزه رأفت ! »

« ما انتى لازم حاتشوفيه ! »

« يبقى خد الفلوس لحد رأفت مايبجى ويديها لى بنفسه ! »

« والفلوس مالها ومال الـ . . . . »

لكن سهيل توقف ذاهلا عن الحديث ، فلقد تحولت شريفة الهجان إلى تمثال لايتحرك ولا يتنفس ولا تنبىء ملامحه عن أى قدر ولو صغير من الحياة فيه . . . عيناها ثابتتان ، وملامحها صخرية . . . حاول الشاب أن يقول شيئا ، حاول أن ينطق ، لكن التمثال أمامه كان يختلج اختلاجات جسد محتضر ، وإذا الكفان ترتفعان ، والوجه يميل مسلما نفسه للكفين اللتين ضمتا الوجه فى عنف والأصابع تتقلص وتتقلص حتى انفجر فى الغرفة نشيج حار ، وبكاء كان يهز الجسد هزا لا رحمة فيه .

وفاضت دموع سهيل ، ولم يستطع البقاء !!

نهض نحو باب الصالون المفتوح ، وأطلق ساقيه للريح تاركا وراءه كل شىء ! !

. . . .

. . . .

ذلك كان جرس الإنذار الذى نبه عزيز الجبالى إلى ضرورة اتخاذ خطوات إيجابية فى هذا الاتجاه ، وعندما التقى بعد أقل من نصف ساعة بهذا الطيار الشاب ، أدرك على الفور ما حدث ، كانت تجربته مع شريفة لاتزال حية فى وجدانه ، راح يستمع إلى سهيل وهو يحكى

له ماحدث وكان قلبه ينزف لدرجة أنه تمنى فى لحظة أن يتوقف الشاب عن الحديث تاركا إياه لتلك الدموع التى تجمعت خلف عينيه بوخز كوخز الإبر يصيب المرء بالجنون . . . . حتى إذا ماانتهى سهيل من حكايته ، زام عزيز وهو يستدير متشاغلا عنه :

«انت كنت بتبكى ياسهيل ؟ ! »

ساد الصمت لثوان وكان الشاب مترددا ، لكنه قال أخيرا :

« غصب عنى يافندم ! »

استدار نحوه عزيز الجبالى وقد اتخذت ملامحه سمة الصخر الجامد وجاء صوته مؤنبا :

« عيب ده ! »

هذه كلمة لم يقل غيرها ، وجاء قوله مثل لكمة تنبه الشاب إلى كثير من الحقائق التى كان عليه أن يدركها قبل أن يصيبه الضعف فيدمع ، ومضى سهيل يجرجر أذيال الخجل لأنه بكى ، لكنه لو التفت إلى الخلف لحظة ، لأصابه الذهول ، فلقد كان الرجل الذى أنبه لأنه بكى ، يمسح دمعة غلبته على أمره ! !

●●●

كانت هذه هى الصورة أمام عزيز الجبالى فى الوقت الذى كان الفتى يستعد فيه لذلك اللقاء الذى تم فى أمستردام . والذى توج تلك الخطوات الخطيرة فى مرحلته الجديدة ، بموافقة دان رابينوفيتش على التعاون معه . . . وإذا كانت تصرفات شريفة قد دفعته إلى التفكير فى

التعجيل باستجلاب الفتى إلى القاهرة ، فإن الأمر كان لابد من أن يتخذ طابعا أكثر خصوصية بالنسبة لرأفت نفسه . . . فمما لاشك فيه أن الفتى كان يعرف يقينا مقدار ماكانت تعانيه أخته من بعده عنها وعدم معرفة شيء يقيني عنه ، ومن ناحية أخرى ، ألا يستحق عام ونصف العام من العمل الدائب والناجح والخطر ـ سبقها أعوام ثلاثة من القلق وعدم الاستقرار ـ مكافأة للفتى الذى كف حتى عن المطالبة بحقوقه المشروعة منذ أن انغمس فى عمله الوطنى هذا . . . كانت الفكرة تختمر ، وكان لابد من طرحها على « شريف والى » رئيس هيئة الخدمة السرية ، الذى وافق على الفور وهو يرقب حماس ذلك الضابط الشاب بمزيد من السعادة ، حدث هذا قبل أن يبدأ رأفت رحلته إلى أمستردام ، وكان المفروض ، حسب الخطة التى وضعت ، أن يمر بألمانيا الغربية قبل انتقاله إلى هولندا كى يلتقى بحسن القطان هناك فى مدينة « ديوسبورج » الصناعية . . وهنا ، لمعت فى ذهن عزيز فكرة بدت له وكأنها هدية من السماء . . . فمما لاشك فيه أن زيارة الفتى المفاجئة إلى القاهرة قد تصيبه مع الفرحة بما لايخطر ببال ، كان الأمر فى حاجة إلى تمهيد بعد هذه الغيبة الطويلة عن الوطن والأهل ، تمهيد يجعلها مقبولة تماما ودون أذيال من ردود فعل عاطفية أو وجدانية ، بحيث إذا ما زف إليه حسن القطان الخبر ، جاء الأمر طبيعيا للغاية . . . هبطت الفكرة على ذهن عزيز نتيجة لوجود محسن ممتاز فى ألمانيا فى ذلك الوقت !

« قال عزيز الجبالى إن لقاء الفتى بمحسن ممتاز فى

ألمانيا الغربية ، قد أمده بالمزيد من الحماس ، كما ساعد بالفعل على تقبل الفتى ، برد فعل معقول ، لفكرة زيارته للقاهرة ! »

ولقد كان عزيز على حق تماما فيما ذهب إليه ،فلقد كان أهم ما استشعره الفتى فى لقائه مع أستاذه العظيم ، هو أنه استنشق فيه عبير الوطن والأهل ، وهو ـ فى تلك الليلة وبعد الانتهاء من العمل مع حسن القطان ـ لم يكف عن السؤال عن مصر ، وأحوالها وناسها وشوارعها وحواريها وكأنه يعيش بالخيال ، واقعا يتمنى أن يحققه . . . وبذلك ، اقترب الفتى ـ برؤيته لمحسن ـ من « فكرة » زيارة الوطن فى مثل ظروفه التى كان يعيشها !

●●●

عندما زف حسن القطان إلى رأفت الهجان خبر سفره إلى القاهرة ، اجتاحت الفتى انفعالات عنيفة وشتى ، واستغرق نحو نصف الساعة حتى استطاع السيطرة على تلك الانفعالات . . . لم يشأ حسن أن يقاطعه ، فتركه لصمته وانفعالاته حتى سعى الفتى إليه وكان يبدو سعيدا سعادة مغموسة فى آلام بلا حصر ، أراد حسن ـ وقد خمن ماكان يدور بخلده ـ أن يهون عليه الأمر ، فربت على ذراعه فى ود وهو يقول :

« إيه رأيك فى المفاجأة الحلوة دى ؟! »

ابتسم رأفت قائلا :

« بس أنا لازم اشترى شوية هدايا قبل ما اسافر ! »

« مفيش وقت يارأفت . اكتب لى بالضبط أنت عاوز إيه ومنين ! »

نظر إليه رأفت فى امتنان فأردف حسن :

« عاوز تشترى الهدايا من هنا ، حانجيبها لك من هنا ، عاوزها من روما حانشتريها لك من هناك . . . بس انت أكتب كل المقاسات ومواصفات كل هدية ، ولمين فى اخواتك أو أولادهم أو زوجاتهم أو حتى قرايبك . . . . ولما توصل مصر إن شاء الله ، حاتلاقى كل حاجة هناك ! ! »

كان رأفت الآن ممتنا أشد مايكون الامتنان ، قال :

« طب أشكرك ازاى ياحسن بيه ؟ ! »

« بعد اللى انت عملته لمصر يارأفت ، ده أقل مايجب عمله ! »

وهكذا جلس الفتى إلى القلم والورق ، وراح يكتب قائمة طويلة ،ملأت حقيبة هائلة الحجم ، بهدايا لكل أفراد العائلة ، الذين آذوه ، والذين طردوه ، والذين رفضوه . . . لكن شريفة وابنها طارق ، كان لهما بالطبع ، نصيب الأسد ! ! !

●●●

عاد سجن ألوف دان رابينوفيتش إلى إسرائيل بعد أن زوده الفتى بمبلغ محترم من المال كى يشترى بعض الهدايا لكلارا والأصدقاء . . . ضحك الفتى وهو يودعه طالبا إليه ألا ينسى أن يشترى له شخصيا ـ أى لرأفت ـ هدية ، فالمفروض ـ بشكل ما ـ أنهما لم يلتقيا فى الخارج ! ! .

وكان على رأفت أن يطير إلى روما بعد أربع وعشرين ساعة ، أمضى

مع حسن القطان ـ الذى تولى وضع خطة سفره إلى القاهرة وتنفيذها بالكامل فى أوربا ـ ساعتين قبل أن يفترقا ، فى هاتين الساعتين عرف الفتى بالضبط ، ماذا عليه أن يفعل وأن يلتزم به منذ هبوطه إلى مطار روما وحتى وصوله إلى القاهرة !

وهكذا ، وقد أصبح الآن مدربا ومحنكا أيضا ، ما إن وضع قدمه فى مطار روما وغادر المنطقة الجمركية حتى توجه إلى دورة المياه ، غاب فيها لعشر دقائق لاتزيد ، وعندما خرج منها كان يبدو لمن يراه إنسانا آخر . . . بداية ، كان قد سلم جواز سفره الإسرائيلى ـ فى دورة المياه ـ إلى إنسان ما ، وتسلم منه جواز سفر فرنسيا ، كما وضع فوق مقدمة رأسه جزءاً صغيراً من باروكة غيرت منبت الشعر على الجبهة لا أكثر ولا أقل ، كما ارتدى نظارة طبية أعطته لمحة فرنسية . . . والغريب فى الأمر ، أن الصورة المثبتة فى جواز السفر الفرنسى الذى تسلمه ، كانت طبق الأصل لهذا المظهر الجديد الذى بدا عليه الفتى وهو يخرج من دورة المياة فى مطار روما متجها إلى البوابة الموصلة إلى طائرة شركة الخطوط الجوية الفرنسية المتجهة إلى باريس ، والتى لم يكن باقيا على موعد إقلاعها أكثر من خمس وأربعين دقيقة . . . وماهى إلا دقائق قليلة حتى كان يحتل أحد مقاعد الطائرة التى أقلعت فى موعدها تماما !

فى باريس ، كانت هناك سيارة « استيشن واجن » فى انتظاره ، ما إن أقلته حتى انطلقت فى رحلة طويلة ومتعبة إلى الجنوب حيث مدينة « نيس » ، غير أن السياره كانت مزودة بفراش صغير استلقى عليه الفتى واستغرق فى النوم أغلب الطريق !

وصلت السيارة إلى نيس فى صباح اليوم التالى وكانت هناك غرفة محجوزة فى أحد الفنادق المتوسطة باسم مسيو « دانييل مارتان » ـ وهو نفس الاسم المدون فى جواز السفر الفرنسى ـ ولقد ابتسم الفتى وهو يقرأ الاسم الذى انتحله ذات يوم منذ سنوات فى أيام كانت عصيبة . . . بدا له الاسم وكأنه رسالة من جهاز المخابرات المصرى عليه أن يعيها جيدا ، ولقد وصلته الرسالة ، وفهمها !

كانت الرحلة من باريس إلى نيس كافية تماما كى تؤكد نظافة الرحلة ، وأن الفتى غير متبوع وأن كل شىء على مايرام . قال له حسن القطان وهو يودعه إن الأيام القادمة هى إجازة بكل ماتحمل الكلمة من معنى ، وإن عليه أن يستمتع فى نيس أو القاهرة كما يحب ويهوى ، وإن هذه الإجازة هدية إليه من وطنه ، لكن الفتى لم يمكث فى نيس لأكثر من أربع وعشرين ساعة ، كان الشوق إلى القاهرة يأكله أكلا ، وكان التفكير ـ مجرد التفكير ـ فى أنه سوف يلتقى بشريفة وطارق ويتنسم عبير القاهرة وشوارعها وناسها ، يثير فى نفسه مشاعر كالطوفان . . . فى اليوم التالى أقلته طائرة غادرت نيس بعد الفجر بقليل إلى مدريد عاصمة اسبانيا ، وكانت هذه هى أخطر محطة فى الرحلة كلها . . . . وماحدث فى مطار روما حدث فى مطار مدريد ولكن بعيدا عن دورة المياه ، فعندما وصل إلى مدريد كان باقيا على إقلاع الطائرة المتجهة إلى القاهرة نحو ساعتين . . . غادر مسيو « دانييل مارتان » مطار مدريد كى يعود إليه بعد نصف ساعة فقط وقد خلع النظارة الطبية ورفع تلك الباروكة واستبدل بجواز السفر الفرنسى جواز سفر مصريا يحمل اسم « فؤاد

عزيز فائق » . . . كان جواز سفر السيد فؤاد عزيز مليئا بالأختام مما يدل على أن سفراته كثيرة . . . ما إن صعد إلى الطائرة المتجهة إلى القاهرة حتى تنفس ملء صدره ، قادته المضيفة فى أدب بالغ إلى مقعد فى الدرجة الأولى التى تصادف أن كانت خالية تماما إلا منه . . . ولقد ظل الفتى طوال تلك الساعات التى قطعتها الطائرة وهو يحس وكأنه فى حلم ، حتى إذا ما أعلن قائد الطائرة أنه سيدور بها حول الأهرامات دورة حتى يتسنى للركاب مشاهدتها وهم فى مقاعدهم ، خفق قلب الفتى فى عنف وهو يهمس :

« تعيشى يامصر ! »

هكذا قال فى نفس المساء باسما ! !

●●●

قبل ذلك بيومين ، وكان الفتى لايزال فى ألمانيا ، دق جرس التليفون فى بيت العقيد محمد رفيق ، كان الوقت صباحا والمتحدث هو سهيل باتع .

« صباح الخير يامدام شريفة ! »

لكن تحية الشاب لم تجد إجابة على الطرف الآخر .

« أنا سهيل ! »

« عارفة ! »

قالتها شريفة فى ضجر وضيق وبلا ترحيب

« أنا عندى ليكى خبر يفرح »

« اتفضل ! »

« رأفت جاى كمان يومين ! »

اهتزت أسلاك التليفون بصيحة :

« صحيح ؟ ! »

« من فضلك . . . المسألة مش سهلة وأنا لازم أشوفك ! »

« طيب ماتتفضل ! »

عندما وصل سهيل إلى منزل العقيد محمد رفيق ، التقى هناك شريفة أخرى . . . شريفة أضافت الفرحة إلى ملامحها جمالا أخاذا ورونقا كان أكثر بهاء فى هاتين العينين اللامعتين بالسعادة .

« أنا زى ماقلت لسيادتك إن الأستاذ رأفت بيشتغل مع ثورة الجزائر ! »

لم يكن هذا مهما الآن ، طلبت إليه الاستمرار فى الحديث .

« زيارته حاتكون سرية للغاية ، وعلشان كده ، أنا عاوزك تبلغى سيادة العقيد إن الـ . . . . »

« لأ !! »

قالتها فى حسم فرفع الشاب حاجبيه متسائلا فأردفت :

«الأحسن إنكم انتم اللى تبلغوه ، لأنى لو قلت له ، حايعرف إنى كنت مخبية عليه ، وده ممكن يعمل مشاكل مالهاش نهاية ! »

« سيادتك شايفة كده ؟!»

« مفيش حل تانى ! »

نهض سهيل استعدادا للانصراف فتشبثت به :

« هو رأفت جاى امتى بالضبط ؟! »

« قبل آخر الأسبوع إن شاء الله ! »

« مش ممكن ييجى قبل كده ؟ ! »

ابتسم سهيل وهو يقول :

«لازم تعرفى إن وصوله مصر سرى للغاية ، وإن حياته ممكن تكون فى خطر لو حد بره العيلة عرف حاجة عن الموضوع ! »

عندما خطا نحو الخارج هتفت :

« سهيل بيه ! »

التفت نحوها .

« هو رأفت جاى بصحيح ؟ ! »

وابتسم سهيل ابتسامة واثقة ، لكنه لم يرد ، وانصرف !

. . . .

. . . .

فى إحدى وحدات الجيش المصرى المعسكرة فى أطراف القاهرة ، وصلت فى صباح اليوم التالى إشارة تليفونية على أكبر قدر من السرية إلى قائد الوحدة ، تنبئه أن مندوبا من رئاسة الجمهورية سوف يصل فى الثانية عشرة ظهرا كى يلتقى لقاء خاصا بسيادة العقيد محمد رفيق ، وأن على قائد الوحدة تهيئة الجو لمثل تلك المقابلة فى سرية وكتمان !

كان قائد الوحدة مبهورا وهو يزف الخبر همسا لزميله وصديقه محمد رفيق الذى بدت عليه إمارات دهشة بالغة وحيرة هائلة .

« إيه يارفيق . . . مالك ؟ ! »

« أنا مش فاهم إيه الحكاية دى ؟ ! »

« على كل حال ، أديك حاتفهم الساعة اتناشر ! »

فى تمامْ الساعة الثانية عشرة وصلت إلى الوحدة سيارة مدنية يقودها شاب فى الثلاثين من عمره أنيق الملبس دبلوماسى المظهر ، ولقد سُمح للسيارة بالدخول فور سؤال سائقها عن سيادة العقيد محمد رفيق . . .

كان كل شىء مرتبا وقد أخلى مكتب القائد لاستقبال المندوب الذى حياه فى أدب شديد ، وسرعان ماقدم له القائد العقيد محمد رفيق الذى صافحه فى حرارة ودلفا معا ـ وحدهما ـ إلى غرفة القائد التى وقف على بابها أحد رجال البوليس الحربى التابع للوحدة . . . بعد ثوان قدم للرجلين كأسان من الليمون وأغلق عليهما الباب . . . قدم مندوب رئاسة الجمهورية نفسه إلى رفيق الذى كان بادى التوتر قائلا :

« عادل لمعى من رئاسة الجمهورية ! »

هز رفيق رأسه متمتما بكلمات ترحيب وذهنه مشتت ، فطوال الساعتين اللتين مضيتا منذ أن أبلغ بالخبر ، وحتى لحظته تلك ، حاول ـ عبثا ـ أن يعرف سر هذه الزيارة ، أخذته أفكاره يمينا ويسارا . بحث فى حياته وفى ماضيه وحاضره منقبا عن سبب لمثل تلك الزيارة دون جدوى . بعد لحظة قال المندوب المحترم :

« أنا جاى لسيادتك بخصوص الأستاذ رأفت الهجان ! »

اكفهر وجه محمد رفيق حتى بدت ملامحه وكأنها قد تشنجت ، فلقد

كان هذا آخر مافكر فيه ، لاحت على وجه المندوب ابتسامة مهذبة وهو يتساءل :

« إيه مالك ؟ ! »

زفر رفيق مغمغما :

« لا أبدا . . . هو . . . هو عمل حاجة ؟ ! »

« عمل حاجات كتير ! »

« أنا كنت متأكد من ده ! »

« وكلها عظيمة ! »

« إيه ؟ ! »

جاء سؤال رفيق صارخا فضحك المندوب رغما عنه ، وأردف رفيق :

« سيادتك بتقول حاجات عظيمة ؟ ! »

« أيوه ! »

« يظهر إنك غلطان يافندم ! »

« فى إيه ؟ ! »

« فى الاسم ! »

« هو اسم أخو المدام مش رأفت على سليمان الهجان ؟ ! »

« أيوه . . . . بس ده كان . . . . »

قاطعه المندوب فى حسم وأدب :

« إحنا عارفين عنه كل حاجة ، بس اللى سيادتك ماتعرفوش ، إن الأستاذ رأفت دلوقت بقى حاجة تانية خالص ! »

« مش فاهم ! »

وهكـذا راح المندوب المحترم يشرح للسيد العقيد قصة غريبة عن شقيق زوجته الذى يعمل منذ سنوات لحساب وطنه وأمته العربية مع ثورة الجـزائر ، وأن العمليات التى يقوم بها شديدة الحيوية والخطورة بالنسبة لأمن الثورة الجزائرية . . . قال السيد عادل لمعى مندوب رئاسة الجمهورية إنه يحمل رجاء شخصيا من السيد الرئيس بأن . . . .

قاطعه رفيق هاتفا منتفضا :

« سيادة الريس ؟ ! »

« أيوه ، سيادة الرئيس جمال عبد الناصر بيرجو حضرتك إنك تتفهم الموقف ، لأن رأفت بيه عاوز يشوف العيلة بعد الغيبة دى كلها ، وده حقـه وحقكم أنتم كمان . . . لكن المـطلوب إن الأمـر يفضـل سر بينكم . . . وبالطبع مفيش حد فى العيلة ممكن يقوم بالمهمة دى إلا سيادتك ! »

« طبعا . . . طبعا . . . بس . . . . . . »

صمت رفيق بادى الحيرة فسأله المندوب :

« فيه حاجة تانية ؟ ! »

« سيادتك متأكد أن الشخص اللى بتتكلم عنه هو . . . . »

« سيادة العقيد . . . رأفت بيه بقى حاجـه تانية خالص ، ويوم

الخميس إن شاء الله حاتشوف بنفسك ! »

« هو جاى بعد بكره ؟!»

« واختار بيت سيادتك بالذات علشان تبقى كل الأمور تحت سيطرتك ! »

« وعاوز اخواته كلهم ؟ ! »

« وزوجاتهم وأولادهم ! »

بدا العقيد متشككا فيما يقوله الرجل الذى أردف :

« على العمـوم أنـا جاى أبلغك الخبر لسببين . . . السبب الأول علشـان وصول رأفت بيه مايبقاش مفاجأة ليكم خصوصا بعد الغيبة الطويلة دى . . . والسبب الثانى علشان نرجوك رجاء شخصى إنك تقابله كما ينبغى . . . ولازم تعرف إن مركزه النهارده مش شوية ! »

هتف الرجل كالمستفز :

« سيادتك متأكد إنكم تعرفوا عنه كل حاجة ؟ ! »

حدجه لمعى بنظرة باردة فعاد يقول :

« تعرفوا مثلا إنه كان نصاب ومحتال ورد سجون ؟ ! »

لم يرد السيد عادل لمعى وظلت نظرتـه الباردة تحدج العقيد الذى أصابه الارتباك فغمغم :

«ماهو لازم سيادتك تعذرنى ! »

«أنا عاذرك ! »

« طيب . . . طيب إيه المطلوب منى بالضبط ؟ ! »

« إنـك تنبه على اخواته كلهم بالتكتم الشديد وبلاش حد منكم نكلم فى الموضوع ده مع أى حد مهما كانت ثقته فيه ! »

« أكيد ده حايحصل ، إنما يعنى هو رأفت . . . . »

صمت رفيق لثوان استطرد بعدها :

« قصدى رأفت بيه حايوصل بعد بكره الساعة كام بإذن الله ؟ ! »

« الساعة سبعة والدنيا ضلمة ! ! »

. . . .

. . . .

بعد ظهر نفس اليوم عاد العقيد إلى بيته وكان يبدو عليه الانفعال ، كان يعـرف أن مايحمله من أخبـار إلى زوجتـه شىء فوق كل خيال وتصور ، حاول أن يرجىء الحديث فى الأمر حتى يزول انفعاله لكنه وجد أن الوقت ضيق ولابد من ترتيب الأمر مع إخوتها جميعا ، وسرعان ما أفضى بالأمر إلى شريفة التى استمعت إليه دون مقاطعة حتى إذا ما انتهى من حديثه ، انفجرت باكية دون كلمة .

« انتى حقك تفرحى ياشريفة مش تبكى ! »

لم ترد عليه فأردف :

« هو شىء يسعد فعلا إن رأفت تحول إلى إنسان محترم بالشكل ده ! »

وظلت شريفة على صمتها وإن كانت قد انخرطت فى بكاء حار . وتركها زوجها لدموعها . فلقد كان يعلم الآن أنها كانت دائما على حق

فى دفاعها عن رأفت ، وأنهم جميعا ـ وهو أولهم ـ قد أساءوا إلى الفتى إساءات بالغة ، ولم يقدروه حق قدره !

●●●

وصلت الطائرة القادمة من مدريد إلى مطار القاهرة بعد انتصاف اليوم بسـاعـة أو ساعتـين ، كان الـوقت شتاء والسماء ملبدة بالغيوم والرياح تهب على أرض المطار شديدة البرودة . . لكن هذا لم يمنع عددا من المستقبلين الـذين حصلوا على « أذونات » باستقبال بعض المسافرين من الوقوف أسفل سلم الطائرة . . . وكما كان عدد الركاب قليلا لايزيد على الثـلاثـين ، فلقـد كان عدد المستقبلين نحـو خمسة أشخـاص عدا بعض موظفى شركة مصر للطيران الذين كانوا هناك لعمل أو لآخر . . . من بين هؤلاء الموظفين، كان عزيز الجبالى !

تشاغل عزيز بما كان يتظاهر بالقيام به من عمل لكن عينيه كانتا هنـاك عند السلم ، كانت لديه معلومات كاملة عن الطائرة وركابها وعددهم ، كما كانت برقية قد وصلت فى الصباح الباكر من مدريد تزف خبر صعود الفتى إلى الطائرة فى أمان . . . وبالرغم من ذلك ، فإن هذا لم يمنـع القلق من التسرب إلى نفسـه عندما غادر كل ركاب الطائرة وراحوا يهبطون السلم ويقطعون أرض المطار إلى مبناه سيرا على الأقدام دون أن يظهر رأفت .

لكنه أخيرا ظهر ! !

خطا نحو الخارج وهو يومىء للمضيفة التى كانت فى وداعه شاكراً ، توقف عند قمة السلم ودار وجهه فى كل اتجاه وكأنه يلتهم الدنيا فى نظرة

واحدة . . . . كان يرتدى معطف مطر وقبعة وفى يمناه حقيبة أوراق سوداء اللون . . . هبط درجتين لكنه توقف ، وضع حقيبة أوراقه على السلم وخلع معطفه وطواه ووضعه على يسراه ثم مال على الحقيبة فالتقطها بيمناه ، شد قامته ، ملأ صدره بالهواء ، ثم راح يهبط الدرج على مهل !

كانت هذه هى المرة الوحيدة ـ خلال تلك الزيارة ـ التى شاهد فيها عزيز ـ رأفت الهجان . . راح الفتى يقطع أرض المطار ملقيا بنفسه وسط الركاب . . . فى صالة الوصول وقف فى الطابور أمام ضابط الجوازات ، عندما جاء دوره قدم جوازه للضابط الذى قلب صفحاته فى روتينية ثم وضع على إحداها ختم القاهرة وأعاده إليه . عبر منطقة الجوازات إلى المنطقة الجمركية وراح يخطو هنا وهناك فى انتظار وصول الحقائب . عندما وصلت امتدت يده إلى حقيبة ملابس متوسطة رمادية اللون فحملها مغادرا المنطقة الجمركية . . . خارج مبنى المطار كان هناك العديد من المستقبلين والحمالين وسائقى التاكسى ومندوبى شركات السياحة والفنادق والباحثين عن الزبائن . . . اعترض طريقه أكثر من واحد عارضين عليه خدماتهم وكانت الملاحظة التى أدهشته أنهم جميعا كانوا يتحدثون إليه بلغة أوروبية أو بأخرى ، حتى تقدم منه سائق تاكسى اقترب منه ـ مثله مثل الآخرين ـ وقال بصوت خفيض وسط ضجيج المستقبلين والقادمين .

« الحمد لله على السلامة يا فؤاد بك ! »

وكانت هذه الجملة البسيطة هى كلمة السر التى سلم الفتى بعدها

حقيبته للسائق الذى قاده إلى سيارته . . . وسرعان ما انطلقت السيارة مبتعدة عن المطار !

. . . .

. . . .

قال سائق التاكسى ـ الذى لم يكن سوى واحد من ضباط المخابرات الشبان زيادة فى الحرص والتأمين ـ بعد ذلك ، إن الفتى لم ينطق حرفاً منذ غادر المطار وحتى ترك السيارة أمام تلك الفيللا الأنيقة التى كانت معدة لاستقباله فى أحد شوارع المعادى الهادئة . . . كان كل مادار بينهم من حوار هو قول السائق :

« مصر نورت ! »

« الله ينور عليك ! »

ثم ساد الصمت ، وترك الفتى لعينيه العنان كى تلتهما شوارع القاهرة وبيوتها . . . بين الحين والحين ـ هكذا قال الضابط السائق ـ كان رأفت يزفر زفرة حارة وكأنه يزيح بها عن صدره عبئا شديد الثقل . . . ثم يغرق بعدها فى الصمت والتدخين ، ليعود بعد دقائق ، فيزفر من جديد !

●●●

عندما وصلت السيارة إلى الفيللا كانت الساعة تشير إلى الرابعة وعشر دقائق بعد الظهر ، ما إن توقفت أمام الباب حتى هب عم عبده البواب من فوق دكته مرحبا فى أدب جم .

« الحمد لله على السلامة ياسعادة البيه ! »

على باب الڤيللا الداخلى ظهرت الست أم حسنى ـ مديرة البيت ومدبرة أمره ـ والابتسامة تملأ وجهها ، ابتسامة ترحيب حار غير مبالغ فيها ، هبطت الدرج إلى الحديقة وصافحته فى حرارة سرت إليه فبدا عليه التأثر ، لكنها سرعان ماجذبت إليها وجهه وقبلته فى وجنته وكأنه ولدها غاب عنها لسنين طالت فاحتدم الشوق فى صدرها .

« نورت بيتك ومطرحك يابنى ! »

ياللوطن عندما يضمك إليه فى حنان غير مفتعل . . . ترقرق الدمع فى عينى رأفت وهو ينظر إلى تلك السيدة الريفية ذات الوجه المليح ، قالت ضاحكة :

« أنا خالتك أم حسنى يابيه . . . مش فاكرنى ؟ ! »

لم يكن الفتى قد رآها مرة فى حياته من قبل ، لكنه كان صادقا حتى أعماق القلب وهو يقول :

« وفيه حد ينسى ريحة بلده ياست أم حسنى ! »

من الداخل هرول عم على الطباخ مرحبا ، ومن خلفه كان مصطفى السفرجى وطه الجناينى . . . دلف الفتى وسطهم جميعا إلى بهو صغير ومرتب كأحسن مايكون الترتيب . . . أهم ما فيه تلك المصرية الخالصة التى أثث بها البيت ، فى أقصى البهو كان ثمة ركن زجاجى الحيطان يطل على الحديقة ، فى صدره كنبة استانبولى ذات مساند وشلت ، أمامها صينية نحاسية مستديرة ذات نقوش شرقية تتربع فوق حامل من الخشب ، فوق الصينية اللامعة كانت هناك

معدات القهوة المصرية التقليدية ، فتذكر رأفت ، كالضباب أمه ! !

كان أول المتحدثين هو عم على الطباخ :

« من غير مؤاخذة* يابيه . . . اتغديت ؟ ! »

« جابوا لنا أكل فى الطيارة ، بس أنا جعان ! »

« الغدا جاهز ! »

« عندك إيه ؟ ! »

«فضلة خيرك ملوخية بالأرانب ، وطاجن بامية ورز بالخلطة والحلو أم على ! »

أقسم رأفت الهجان بعدها أنه منع دموعه بجهد شديد ، وأنه لولا دخول عم عبده البواب يعلن عن وصول زائرين ، لانفجر فى البكاء وسط كل هذا الحنان الذى أحاط به كدثار من حب شديد الدفء . . . . وسط كل هذا خطا عم عبده ووقف بعيدا فى صمت حتى هتفت به أم حسنى :

« خير ياعم عبده ! »

وجه الرجل حديثه إلى الفتى :

« فيه ناس عايزين سيادتك بره ياسعادة البيه ! »

« ناس ؟ ! »

قالها الفتى دهشا فلقد احس أن فى الأمر خطأ ما .

« فيه واحد اسمه نديم بيه هاشم ومعاه . . . . »

قاطعه الفتى كالمصعوق هاتفا :

« خليهم يتفضلوا »

ما إن انسحب البواب حتى انسحب الباقون جميعا بمن فيهم أم حسنى فى صمت ، خطا الفتى نحو الباب خطوة وكان الذهول ممسكا بتلابيبه ، فإذا نديم هاشم بقامته الفارهة وجسده المتناسق ينفذ من فتحه الباب مرحبا . . . تجمد الفتى ناظرا إليه مالئا منه عينيه هامسا :

«نديم بيه ؟ ! »

وفتح نديم ذراعيه كى يضم جسد الفتى الدقيق إلى صدره فى عنف حنون ، عاد الدمع إلى عينى رأفت الهجان فرأى خلف نديم وجه حسن القطان مترقرقا ، هتف مختنق الصوت :

« أنا تعبتك معايا قوى ياحسن بيه ! »

« نورت بلدك يارأفت ! »

وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة فى حياة رأفت على سليمان الهجان ـ بعد وفاة أبيه ـ التى انفجر فيها باكيا منهنها كطفل صغير ! .

. . . .

. . . .

ولقد تركه الرجلان لانفعالاته حتى هدأ ، وأصرت أم حسنى أن تدعوهما إلى الغداء معه فهذه هى الأصول ، بعد الغداء قدمت لهم القهوة بنفسها فاحتج مصطفى السفرجى لكنها لم تلق بالا إلى احتجاجه وأصرت على القيام بخدمة الفتى طوال إقامته . . . راح رأفت ـ على مائدة الغداء ـ يلتهم أطباق الملوخية والبامية فى شوق عارم ، فضحك نديم مداعبا إياه بقوله :

« على مهلك شوية على نفسك ! »

« مصر واحشانى ! »

« وحاتعمل إيه فى الأكل اللى طابخهولك شريفة ؟ ! »

توقف الفتى عن المضغ ذاهلا :

« هو أنا حاشوفهم الليلة ؟ ! »

« الساعة سبعة ! »

« كلهم ؟ ! »

« بربطة المعلم ! »

وكف الفتى عن الأكل فورا ، واعتذر بعد ذلك لعم على الطباخ قائلا إنه يحب البامية البايتة وإن الملوخية فى اليوم التالى تصبح أحلى مذاقا . . . راح يتجاذب أطراف الحديث مع نديم وحسن الذى منعه من التحدث عن العمل طوال إقامته فى مصر ، فالإجازة إجازة . . . أخبراه بكل ماتم ترتيبه ، وما الذى قيل للعائلة عنه ، ولم يكن أحدهما فى حاجة إلى التنبيه عليه بالتزام ماقيل . . . فلقد كان رأفت الهجان ، الجالس أمامهما الآن ، فى ڤيللا صغيرة فى شارع هادىء من شوارع حى المعادى الراقى ، إنسانا آخر بكل ماتحمل الكلمة من معنى ! !

●●●

فى السادسة تماما ، كانت العائلة كلها قد اجتمعت فى بيت العقيد محمد رفيق . . . كان هناك عادل الأخ الأكبر الذى طرد الفتى من البيت بعد أن تزوج بأسابيع قليلة ، كما وصل سليم ومحمود وزوجتاهما وأولادهما . . . امتلأ البيت وتعالت صيحات الأولاد ووقف العقيد

وسط الجميع وقد ارتدى ملابسه المدنية كاملة وهو يتحرك هنا وهناك بلا هدف . . . بدا الجميع وكأنهم فى يوم عيد ، الرجال والنساء وحتى الأطفال كانوا فى أبهى حللهم بعد ما بلغ الآباء من أنباء سرية عن مكانة رأفت ومركزه .

فى الداخل ، فى غرفة النوم بالتحديد ، راحت شريفه تهندم ولدها بملابس جديدة اشترتها له احتفالا باستقبال « خاله فأفت » وهى توصيه بأن يتصرف كما ينبغى أمام الخال الذى يحبه حبا عظيما . . . كان الصبى الذى بلغ السابعة يعرف كل هذا وقد سمعه عشرات المرات من أمه خلال اليومين اللذين مضيا ، لكنه أيضا كان يعرف أشياء أخرى طالما سمعها من أبيه وأخواله الآخرين عن هذا الخال الغائب الذى يذكره كشبح ضبابى غير واضح المعالم . . . يذكره عندما كان يضعه على ركبتيه ويغمر وجهه بالقبلات ويتحفه بالهدايا والحلوى والشيكولاته . . . يذكر الصبى كل هذا كما يذكر ماسمعه من أبيه عن فساد هذا الخال وسجنه وتشرده وأخلاقه وضياعه وقلة حظه من التعليم . . . ومنذ أن علم من أمه بالخبر وهو لا يكف عن الأسئلة التى لم يجد لها إجابات سوى تحذيرات أمه الهامسة . . . السؤال العويص الذى ظل يحيره وسط كل هذا الضجيج والحفاوة والاستعداد هو : هل الضيف القادم الذى يستعدون لاستقباله بكل هذه الحفاوة ، هو هو نفس الخال الذى كانوا يتحدثون عنه بمزيد من الاحتقار والاشمئزاز والضيق من العار الذى ألحقه بأسرة أمه ؟ !

وعندما لم يجد الصغير جوابا ، لاذ بالصمت ـ على غير عادته ـ وراح يرقب ماحوله فى انتظار هذا الخال العجيب !

كانت مائدة الطعام التى تتوسط الصالة مهيأة بكل مالذ وطاب من حلوى وفاكهة ، كما كان المطبخ جاهزا لوليمة عائلية حشدت فيها شريفة كل ما تستطيع من أصناف طعام يحبها رأفت !

فى الصالون راح الإخوة الثلاثة يسألون ـ ويلحون فى السؤال ـ زوج أختهم الضابط الكبير الذى لايريد أن يبوح بشىء وينكر أنه يعرف أكثر مما أخبرهم به . . . صاح عادل :

«ماهو كل شىء بالعقل يارفيق . . . انت بتقول . . . . »

قاطعه العقيد :

« عادل ماتسألنيش ، أنا قلت لكم كل اللى عرفته ، وباقول لكم إن الكلام فى الموضوع ده بره البيت ومع أى حد مهما كانت علاقتكم بيه ، حاتكون عواقبه وخيمة وانتوا أحرار بقى !»

صاحت إحدى الزوجات :

« طب والولاد حانسكتهم إزاى ؟ ! »

« الولاد لما يقولوا إنهم شافوا خالهم مافيهاش حاجة وده أمر طبيعى . . . هو المهم عدم الكلام فى المهمة اللى هو بيشتغلها لأن ده أمن دولة . . . فاهمين يعنى إيه أمن دولة ؟ ! »

سبح الصمت فى سماء الغرفة مشحونا بتوتر بلا حدود ، وإنْ كانت العيون تتلاقى فى نظرات تحمل أسئلة حيرى وبلا إجابات . . . من الداخل جاء طارق يداخله إحساس بأنه وحده المعنى بهذه الزيارة ، بينما وقفت شريفة بباب الغرفة وقد ارتدت أفخر ثيابها وهى تسألهم إن

كان أحدهم يريد أن يشرب شيئا ، فقال سليم :

« خلينا لما ييجى رأفت نشرب معاه ياشريفة ! »

مضت الدقائق ثقيلة بطيئة تحمل حوارا بلا معنى حتى صاح طفل كان يقف فى الشرفة :

« خالى جه . . . خالى جه ! »

واندفع الجميع نحو الشرفة كل يريد أن يسبق الآخر كى يرى رأفت . . . راحوا يتدافعون ويتزاحمون وقد تكدسوا حول سور الشرفة تطل رءوسهم بعيون دهشة على مشهد لم يتخيله أحدهم ولا فى المنام . . . .

كانت هناك سيارة أمريكيةسوداء فارهة الطول تتوقف أمام الباب متهادية ، ليفتح باب السيارة الأمامى قبل أن تتوقف تماما ويهبط منه مرافق عملاق كان يجلس بجوار السائق ، استدار الرجل فى رشاقة المدرب كى يفتح الباب الخلفى فى احترام بالغ . . . كانت شريفة الآن تدفع الجميع فى عنف مفسحة لنفسها طريقا وسط الأجساد وصوتها يرتجف قائلة :

« أخويا . . أخويا . . . أشوف أخويا ! »

أطلت شريفة فى نفس اللحظة التى كان رأفت يهبط فيها من السيارة .

ساد الصمت ووجم الجميع .

يالله . . . أهذا هو رأفت على سليمان الهجان ؟ !

توقف الفتى فوق الطوار لثوان قبل أن يرفع رأسه إلى أعلى ، كان

واضحا أنه يغالب انفعالاته ويحاول السيطرة على أعصابه . ملأ وجهه عينى شريفة فهتفت فى لوعة :

« رأفت ! »

من الباب الأيسر للسيارة هبط ذلك الشاب سهيل باتع وكان يرافق الفتى ، ظل رأفت رافعا رأسه إلى أعلى لثوان لم تطل فلقد اندفع بعدها يعبر مدخل العمارة وهو يخطف الدرج خطفا وقد ترك لعواطفه العنان فراح يلهث . . . من الدور الثالث كانت شريفة تلقى بنفسها إلى السلم هابطة نحو أخيها وهى تردد اسمه بلا انقطاع .

ما إن واجه كل منهما الآخر حتى انفجرا فى بكاء مر ، التقط رأفت جسد شقيقته المتهاوى بين ذراعيه وهبط بها إلى الدرج فجلسا عليه فى أعياء ، تعلقت شريفة بعنق أخيها وراحت تغمر وجهه بالقبلات وقد انفجر الشوق والحرمان والعذاب واليتم وذكريات الماضى تصرخ فى الوجدان شياطين لاترحم ، من أعلى كانت كل الرءوس تطل على المشهد وقد اكتست عيونها جميعا بالدمع ، وانفجرت إحدى الزوجات باكية وهى تهرول إلى الداخل . . . دفعت شريفة أخاها بعيدا عنها ثم أمسكت بوجهه بين يديها وراحت تنظر إليه وكان الدمع يغرق وجنتيه . همست :

« واحشنى ياخويا ! »

وصل إليهما زوجها وهو يحاول فى استماتة أن يتمالك نفسه ، مال على زوجته فى حنان هامسا :

« انتوا على السلم ياجماعة ! »

وامتثلت شريفة ناهضة ، فى الوقت الذى كان رفيق ، يمد فيه يده

لرأفت مرحبا :

« الحمد لله على السلامة يارأفت ! »

وهرولت الأقدام هابطة الدرج ، وأحاط الجميع بالفتى الذى ترك لهم نفسه كى يصعدوا به محفوفا بالقبلات والحب . . . تذكر أباه وتذكر أمه وتـذكر آخر مرة جاء فيها إلى هذا البيت متسللا . . . ما أعظم الفرق بين الليلة والبارحة . . . ماإن استقر بهم المقام فى غرفة الصالون حتى كانت شريفة تجلس إلى جوار أخيها وهى متشبثة بيده وكأنها تخاف من فراره . . . ووقف طارق أمام خاله فى صمت فإذا بالخال يضمه إليه وهو يغمر وجهه بالقبلات والصبى ذاهل بما يحدث .

دق الباب فقفز رفيق من مكانه كى يرى من الطارق ، فتح الباب ورفعت شريفة عينيها كى تجد أمامها « سهيل » بلحمه ودمه . . . لكن سهيل أبعد عينيه عنها متحدثا إلى زوجها الذى رحب به .

« لا مؤاخذة يافندم ، شنطة رأفت بيه وصلت ! »

قال هذا ثم أفسح الطريق للعملاق الذى كان جالسا بجوار السائق وهـو يدلف حامـلا حقيبة الهدايا الهائلة الحجم ويضعها فى منتصف الغرفة ، ما إن هم بالانصراف حتى هتف رأفت :

« أنا متشكر قوى ! »

« العفو يافندم ، أى خدمات تانية ؟ ! »

هتف رفيق :

« ماتتفضلوا ! »

ابتسم سهيل معتذرا :

« لأمعلش . . . بس بعد إذنكم الأخ حايقف هنا عند الباب ! »

ثم نظر إلى رأفت مردفا :

« وأنا حاكون فى العربية ! »

عبثا حاول رفيق أن يقدم لهما ولو كوبا من الماء فما لبث سهيل أن انصرف ، وأغلق الباب من جديد ، وأحاطت العيون ، كل العيون ، برأفت فى انبهار لا يخفى . . . مضت دقائق تناثرت فيها كلمات ترحيب مغموسة فى حرج وخجل ، وكان طارق الصغير يجلس على ركبتى خاله يملؤه الإحسـاس بالتميز على الآخـرين . . . لكنـه مالبث أن صاح بصوت عال . . .

« خالو ! »

« نعم ياحبيبى ؟ ! »

« إلا انت صحيح كنت فى السجن ؟ ! »

الفصل الرابع

على حافة كارثة

قالت هيلين سمحون لعزيز الجبالى وهى تقاوم طوفانِ الدمع الذى انهمر من عينيها : إنها كألمانية رأت من ويلات الحرب مارأت من تشتت وتفتت للأسرة ، تعودت - فوق طبيعة بنى جنسها الصارمة - ألا تحترم الدموع فالدموع لاتغسل حزنا ، ولاتُقوِّمُ معوجا ، ولاتصلح خطأ . . . لكنها لم تستطع - وهى تستمع إلى قصة الفتى - أن تمنع دمعها مرات ومرات ، وإن هذا قد دفعها لأن تتساءل عما إذا كانت ، وهى تستمع إلى قصة زوجها الراحل ، تبكى تلك الحياة التى عاشتها معه ، وذلك الحنان الذى غمرها به ، رغم كل مالقيه فى حياته من عنت ، وإحساسها الغريب بالأمن وهى إلى جواره رغم أن إحساسه هو بالأمن كان مشوبا بالقلق والحذر . . . أم أن الأمر مجرد تماما ، وأن قصة الفتى فى حد ذاتها ، وبصرف النظر عن حياتها معه وارتباطها به ، بلغت مآسيها هذا الحد الذى يدفعها دفعا إلى البكاء .

كانت هيلين سمحون تجلس جلستها تلك الشامخة المرفوعة الرأس التى ظن عزيز فى البداية أنها نتيجة تحفظ فرضته ظروف اللقاء بينهما ،

ثم اكتشف مع مرور الأيام ، أنها طبيعـة فى هذه السيدة التى كان فخـرهـا واعتـزازهـا بزوجهـا يتـزايدان لحظة بعد لحظة ، ويوما بعد يوم . . . وعلى كُلٍ ، فلقد كان عزيز الجبالى فى تلك اللحظات يبدو وكـأن العمر تقدم به سنوات وإن كانت ملامحه تنبىء بذلك الفيض الخفى من الراحة ، وكأنه أزاح عن كاهله عبئا اشتد عليه ثقله . . . كان يبدو متأثرا بما استجلبه من ذكريات مضت عليها سنوات . . . قال لهيلين سمحون إنه هاهنا ـ عند زيارة الفتى الأولى للقاهرة ـ يجب أن تنتهى القصة ، قصة الفتى ، وإنه لو كان كاتبا ، لما كتب حرفا بعد ذلـك . . . فلقـد اكتملت عناصر القصة ـ كعمل فنى ـ عند اكتمال الدائرة ووصول الفتى إلى القاهرة منتصرا .

ثم قال : إن الأيام العشرة التى قضاها رأفت الهجان فى القاهرة كانت من أحلى أيام عمره على الإطلاق ، زار فيها كل مكان أراد أن يزوره فى مصر ، دُعِىَ إلى بيوت العائلة بيتا بيتا فقبل الدعوة ، وقوبل بحفـاوة لم يتخيلها . . . لُبيت كل رغباته دون مناقشة ، واستطاعت الست أم حسنى مع زملائها من الرجال أن يحيطوا رأفت بذلك الدفء المصرى الخالص ، حتى لقد طلب جلبابا مصريا كى يرتديه فى البيت وأثنـاء النـوم . . . وكم من ساعـات قضـاهـا مع عم عبـده البواب ومصـطفى السفـرجى والأسطى بخ الطباخ وطه الجناينى فى دردشة لاتنتهى ، وحكـايات عن مصر ونوادرها ، والنكت التى كان الناس يتبادلونها ، والحياة والثورة والأغنيات والفن . . قال رأفت فيها بعد إنه رأى « مصر » أخـرى غير تلك التى غادرهـا ، وأن فخره بوطنه كان

يشعره بأن رأسه دائما مرفوع ، وأمده إحساسه بالناس بمزيد من الثقة والأمل فى المستقبل .

مكان واحد فقط حُرِّم على الفتى ارتياده أو حتى الاقتراب منه ، ذلك هو « مقهى وبار استانبيلوس »

كان « استانبيلوس » الابن لايزال يصول ويجول فى مهاه ومايحيط به ممارسـا حياتـه كما تعودها ، يتذكر مع بعض المخضرمين من رواد المقهى ذلك الركن اليهودى الذى اختفى ، يتذكر معهم أسماء رجال سافروا إلى فرنسا وأمريكا أو إسرائيل . . . لكنه كان يتوقف دائما عند ذكرى ذلك الشاب النحيل الشاحب الصامت ، والذى عرفوه باسم : « ليفى كوهين » ! . . . كان حديثه مع الأصدقاء حول الفتى ينتهى دائماً بتساؤل يظلّ معلقا بلا جواب : أين ذهب ذلك الفتى الغامض ، وماذا كان مصيره ؟ ! . . . وفى أى أرض هو ؟ ! . . . لا أحد يدرى !

حاول رأفت الهجان قبل الرحيل أن يناقش بعضا من أمور العمل ، لكن الرجال رفضوا . وطلبوا إليه فى حسم أن يستمتع بإجازته ، وأن يعطى نفسه حق الراحة ، وأن ينسى كل شىء عن حياته فى إسرائيل!

ثم كان الوداع مؤثرا . قال لشقيقته ، كما قال لإخوته ، إنه سيحاول أن يزور مصر ، لكنه لايستطيع أن يعد بقرب الموعد ، وإن كان قد وعد شريفة بالذات ، أن يكتب لها بانتظام !

عنـدمـا حانت لحظة الـرحيل كان هنـاك نديم هاشم وحسن القـطان . . . لُقن الفتى أسلوب مغادرته لمصر ، وما الذى عليه أن يفعله فى خط سيره الـذى ينتهى فى تل أبيب . ابتسم موجها حديثه

لحسن ، شاكرا إياه على كل ماتجشم من أجله ، لكن حسن ضحك هاتفا :

« أنا اللى لازم أشكرك ياديڤيد ! »

لم يعد يعنى الفتى الآن أن ينادوه ديڤيد أو رأفت فابتسم متسائلا :

« على إيه ؟ ! »

« على إنك اديتنى فرصة آخذ إجازة أنا كمان ، لاحظ إن بقى لى عشرة أيام فى مصر ! »

وقال الذين رأوا الفتى فى المطار إن رأفت الهجان كان رابط الجأش طوال إجراءات الخروج حتى غادر مبنى المطار فى طريقه إلى الطائرة ، فقبل أن يصعد سلم الطائرة توقف ، واستدار ، وملأ عينيه بأرض وطنه ، أو ربما كان يبحث عن وجه يعرفه كى يلوح له . . . لكنه فى النهاية صعد السلم ، وقبل أن يدلف إلى الداخل ، اختطف نظرة سريعة من فوق كتفه ، ثم غاب عن الأنظار .

●●●

كانت آخر المحطات التى توقف فيها رأفت الهجان قبل أن يطير إلى إسرائيل ، هى روما . . . فى روما تسلم نوعا جديدا من الحبر السرى أكثر تقدما ، كما قام ـ خلال أربع وعشرين ساعة ـ باجتماعات واتصالات مكثفة لمناقشة أو تلبية عدد من العروض التى كانت فى انتظاره من عدد من شركات السياحة . . . وعندما وصل إلى تل أبيب

وجد الجميع فى شوق إليه ، كما تبادل الهدايا مع دان رابينوفيتش الذى وجده راضيا كل الرضا .

. . . .

. . . .

أرسلت القاهرة إلى الفتى عددا من الأسئلة كان عليه أن يوجهها إلى عميليه ـ دان رابينوفيتش وإيزاك بن عميتاى ـ وإذا كانت الشبكة العسكرية تتكون من كليهما ومعهما بيخور شطريت ، فإن هذا الأخير لم يكن يدرى أن الفتى يوجه إليه أسئلة من أى نوع ، ولقد أصر رأفت الهجان على عدم مفاتحة هذا السكير فى الأمر ، ويكفيه ثمن زجاجات الخمر الفاخرة التى يحتسيها عنده ، والتى ـ بعد أن تسرى قطراتها فى عروقه ـ تحل عقدة لسانه وعقله معاً فإذا هو يجيب بإفاضة عن كل سؤال يوجه إليه ، لدرجة أن الفتى وصل به الأمر ، فى السنوات الأخيرة ، أنه كان يكتب فى أثناء حديث الرجل ، لفرط تدفق المعلومات منه ووفرتها ، وخشية أن ينسى منها شيئا ، وثقة فى أنه فى الصباح لن يذكر كلمة مما قال . . كان بيخور شطريت عضوا فى الشبكة العسكرية حقا ، لكنه كان عميلا « لايدرى » ! ! . . . أما الآخران ـ دان وإيزاك ـ فكان لابد من اختبارهما واختبار دقة معلوماتهما . . . ولذلك ، فلقد بدت الأسئلة الموجهة إليهما من القاهرة بسيطة وقليلة القيمة ، لكن رأفت كان يعلم أن عليه أن يوجهها دون مناقشة ومهما كان رأيه أو رأيهما فيها . . . ثم عرف فيما بعد أن هذه الأسئلة وضعت بواسطة علماء ، كانت تلك الأسئلة اختباراً لكل شخصية ، وامتحانا لصدقها

وجديتها ، ولقد أثبت إيزاك بن عميتاى بالذات أنه جدير بالثقة حقا ، فلقد راحت الإجابات والمعلومات تنهال منه على الفتى ، وكانت نتائج كل التحريات ، وعلى مدى شهور ، تؤكد أنها جميعا صحيحة . . .

وفى البداية كان دان رابينوفيتش متحفظا ، يجيب عن الأسئلة بدقة متناهية وفى حدودها لايتعداها . ولم يكن هناك مانع بالطبع ، إذا ما أعوزته الحاجة إلى المال ، أن يحمل إلى الفتى ـ من تلقاء نفسه ـ خبرا على جانب كبير من الأهمية ، فلقد تعود إذا ما أمد المنظمة بمثل هذه الأخبار المهمة ، أن ينال عليها مكافآت سخية بحق . . . أما عن رأفت نفسه وكيفية إدارته للأمور ، فلقد كتب عزيز الجبالى عنه فى تلك المرحلة يقول :

« . . . . ولقد تدرج ديڤيد فى طريقه تلك ذات الشعب الثلاث ، مع هؤلاء الضباط كل حسب مقتضيات أمره ، ففى حلقات الميسر مع المقامر الخائب . تارة يخسر له متعمدا ، وتارة يقرضه مايسدد به خسائره ويعينه على الاستمرار فى تلك الآفة حتى يزداد تورطه يوما بعد يوم . . . وجلسات الخمر مع ذلك السكير الذى لايفيق إلا فى ساعات عمله فى الجيش ، وكانت أنواع الخمور الفاخرة والنادرة خير نداء يجعل ذلك الضابط يسعى إلى ديڤيد على يديه وركبتيه . يتودد إليه وينشد رضاه . . . أما زوج المتلافة الشابة ، فكانت السبيل إليه هى إغراقه فى الديون . . . وباختصار ، كان ديڤيد رائعا بحق فى

السيطرة على هؤلاء الثلاثة ، كل منهم بعيدا عن الآخر . . . كان يعرف متى يعطى ومتى يمنع ، متى يسخو ومتى يُقتِّر ، متى يكرم ومتى يذل ، متى يجامل ومتى يهين . . . وإذا كان كل من يتعلم شيئا يجنح إلى شىء من التصرف عندما يطبق العلم على العمل ، بمقتضى ظروف الواقع المحيط به ـ فإن ديڤيد فى تطبيقه لما تعلمه كان « أكاديميا » ممتازا ! ! »

وهكذا . . . .

وعندما عاد الفتى إلى إسرائيل كانت النواة الأساسية لتلك الشبكة مكتملة تماما ، ولم يعد أمامه سوى ترتيب أمر الشبكة المدنية التى كانت نواتها الأولى فى بيت السيدة « سيرينا أهارونى » .

وفى واقع الأمر لم تكن هناك مشاكل تذكر بالنسبة لهذه الشبكة التى تكونت من مجموعات ذات فائدة عظمى لمصر . . . واستطاع الفتى أن يجعل من نفسه محورا مهما بالنسبة لهذه المجموعات بعيدا عن بيت سيرينا التى احتفظ بصداقتها بل وتمسك بها . . . غير أن المدهش فى الأمر ، أن الفتى وصل إلى حد من الثقة بنفسه ، وبما كان يحصله من معلومات من هؤلاء الأفراد ، أنه أطلق على كل منهم رقما ، بالرغم من انهم لم يكونوا يعلمون شيئا مما يفعله ديڤيد سمحون ، وكان معنى هذا ان ثقته فى إمكان الحصول من أى واحد منهم على المعلومات بلغت حد اليقين . . . ولقد أرسلت أسماء أعضاء هذه الشبكة المكونة من مجموعات متجانسة من العلماء والاقتصاديين والسياسيين والصحفيين إلى القاهرة ، مع معلومات وافية عن كل عضو . . . وأثبتت التحريات

التى أجرتها القاهرة بوسائلها الخاصة ، أن رأفت الهجان قد ارتفع مستواه التكنيكى ، وبسرعة ، إلى آفاق لم تكن منتظرة !

وعلى سبيل المثال :

كانت حاجة القاهرة إلى متابعة حالة الاقتصاد الإسرائيلى والتذبذب الشديد فى سعر الليرة الإسرائيلية وقيمتها وأسبابها ، تجد من الفتى استجابة سريعة ـ ودورية فى بعض الأحيان ـ بل وفورية ، ليس لأنه كان قد أصبح رجل أعمال بكل ماتحمل الكلمة من معنى . . . ولكن لأن أصدقاءه من الاقتصاديين والوزراء كانوا يناقشون أمامه ومعه كل شىء بحرية كاملة !

كان هذا فى الاقتصاد ، أما فى العلوم ، فكان هناك ماهو أخطر !

ففى السنوات الأولى من الستينيات ، وصلت إلى القاهرة معلومات شبه مؤكدة ، من مصادر متعددة تقول : إن إسرائيل توصلت بعد أبحاث دامت لسنوات ، إلى إنتاج رءوس نووية محدودة التأثير . . .

ولقد ترددت الشائعات وقويت إلى حد أن بعض العرب ـ ومنهم مصريون ـ كانوا يتداولون هذا الأمر على أنه واقع لايحتاج إلى مناقشة ، دون أن يدرى أحد من الذين أخذوا الأمر على علاته ، أن إسرائيل لاتستطيع ، بل لايمكنها أن تفكر فى إنتاج قنبلة ذرية تقليدية ، حتى لو كانت قنبلة صغيرة من هذا الجيل الأول الذى ألقى على هيروشيما ونجازاكى . . . ذلك أن تأثير مثل هذه القنبلة ، إذا ما ألقيت على إحدى الدول العربيه ـ وهى دول ملاصقة لإسرائيل ـ سوف يمتد بالقطع إلى إسرائيل نفسها ، بل قد يدمرها تدميرا كاملا ، إن لم يكن بالانفجار ، فبالسحابات الذرية والإشعاعات الناتجة عن التفجير ! !

من هنا ، كان التفكير الإسرائيلى ينصب على إنتاج « رءوس نووية محدودة التأثير » . . . بمعنى أنها من الممكن أن تصيب جيرانها ، دون أن يمتد تأثيرها إلى داخل حدودها . . . هذه الرءوس ، من الممكن إطلاقها من الطائرات ، أو بواسطة صواريخ أرض أرض . . .

كان هذا هو ماشاع فى القاهرة فى السنوات الأولى من الستينيات ، وإذا كانت المصادر التى حملت الخبر قد أكدت صحته ، فلقد كان على القاهرة أن تتحرك وأن تقطع الشك باليقين . . . وضمن خطوات عديدة وفى اتجاهات متعددة . أرسلت القاهرة إلى رأفت الهجان سؤالا حول الموضوع ـ فى مثل هذه الأحوال لايصبح السؤال سؤالا مباشرا ، ولا سؤالا واحدا يوجه إلى فرد بعينه ، بل هى مجموعة من الأسئلة المتناسقة الموضوعة بعناية فائقة ، بحيث تكوّن الإجابات جميعا صورة متكاملة وصادقة عن الموقف ! ! ـ ولقد تسلم رأفت الهجان تلك « الاحتياجات » ـ هذه هى الكلمة التى تطلق على مثل هذه الأسئلة ـ وما إن مضت أيام ، حتى وصل إلى القاهرة تحليل كامل وواف عن الموقف فى « مؤسسة الطاقة الذرية الاسرائيلية » وبخاصة المفاعل الذرى فى قرية فى « ديمونه » والمعروف بإسم « مفاعل ديمونه » وكان التحليل ينفى بالأدلة ، كل المعلومات التى وصلت إلى القاهرة !

وهكذا أصبح السؤال هو : من الذى أطلق الشائعة ؟ ! . . . وماهو الهدف من إطلاقها ؟ ! و . . . ولكن هذا حديث آخر !

كان هذا فى قطاع العلوم . . . وكان القطاع العسكرى أكثر حساسية وأشد خطورة ، لامن حيث المعلومات الوفيرة التى حصلت

عليهـا القاهرة من الفتى عن الجيش الإسرائيلى ، فلقد كانت هناك « احتياجات » تبدو عاجلة .

ومرة أخرى ، على سبيل المثال !

فى واحد من أعياد الثورة ، والتى كان يخصص فيها يوم **٢٢** يوليو لمؤتمر شعبى يخطب فيه الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، مقدما للشعب تقريرا كاملا عن الموقف الاقتصادى والسياسى والاجتماعى والصناعى والزراعى وكل نشاطات الحياة فى مصر ، ويوم **٢٣** يوليو للاستعراض العسكرى فى الصباح ، وحفل نادى الضباط فى المساء . . . فى هذا اليوم : الثالث والعشرين من يوليو ، ظهر فى سماء مصر عند شواطئنا الشمالية ، سرب من الطائرات الإسرائيلية كان يقوم بجولة استطلاعية ـ كان هذا أمرا طبيعيا فلقد كنا نفعل نفس الشىء بين الحين والحين ـ ولقد تصدت طائراتنا المقاتلة لهذا السرب الذى لاذ بالفرار فور تصديها له . . . وبدا للطيارين المصريين ، وبعض المراقبين على الشاطىء ، أن طائرتين من هذا السرب قد اصطدمت كل منهما بالأخرى ، ثم هوتا إلى مياه البحر !

لم يكن الأمر يحتمل الشك ، فهناك العشرات الذين شاهدوا الطائرتين وهما تسقطان فى البحر الأبيض المتوسط وتغوصان فى مياهه . . . وهكذا أعلنت القاهرة الخبر . . . لكن الأمر بدا للمختصين غريبا ، بل ومستحيلا . . . فكيف تصطدم طائرتان مقاتلتان فى الجو ثم تسقطان فى البحر ؟ !

وعلى الفور ، بدأ رجال المخابرات العامة المصرية تحرياتهم بطول

المنطقة التى وقع فيها الحادث وعرضها ، وجاءت كل التحريات مؤكدة من شهود عيان لايرقى الشك إلى أقوالهم ، أنهم شاهدوا الطائرتين بعيونهم وهما تهويان فى البحر . . . ولكن ، عندما خرجت بعض الزوارق الحربية المصرية ، تحمل عدداً من أمهر الغواصين والضفادع البشرية كى تمسح المنطقة مسحا شاملا وحتى الأعماق ، لم تكن هناك أية أجسام لطائرات سقطت فى البحر ! !

وبدت المعلومات متناقضة تناقضا مريبا ! معلومات ممن شاهدوا بأعينهم تؤكد سقوط الطائرتين .

ومعلومات ممن بحثوا فى المنطقة ، وبأجهزة متطورة ، تنفى هذا الأمر .

ولم يكن هناك مفر من سؤال رأفت الهجان . . . وبعد أسبوع لايزيد ، جاء منه الخبر اليقين !

قال الفتى ـ بداية ـ إن سرب الطائرات الإسرائيلية عاد إلى قواعده سالما دون أن يفقد طائرة واحدة . . . وأن مارآه الناس يسقط فى البحر ، لم يكن سوى خزانين إضافيين من الوقود . . . خزان لكل طائرة !

فما هى القصة ؟ !

كان من أهداف إسرائيل ـ ومازال ـ أن تحارب دائما بعيدا عن أرضها . . . أى أن تدور الحرب داخل أراضى جيرانها من العرب . . . . ولما كان مدى طائراتها المقاتلة فى ذلك الوقت ، لايكفى رحلة الذهاب إلى مسرح العمليات فوق الأراضى العربية ، ثم القيام بالمعركة ، والعودة ، فلقد قام علماء إسرائيل بتطوير هذه الطائرات التى

لم تكن خزانات وقودها تكفى لقيامها بمهماتها ، وذلك بتصميم خزان إضافى للوقود لكل طائرة ، بحيث يعتمد الطيار على هذا الخزان الإضافى منذ لحظة الإقلاع وحتى الوصول إلى مسرح العمليات ، وهناك . . . يستطيع أن يتخلص منه كى تأخذ الطائرة سرعتها وقدرتها الكاملة على المناورة معتمدة على خزانها الأصلى الذى يكفيها تماما لأداء المهمة ، وحتى رحلة العودة إلى القاعدة !

وفى ذلك اليوم ، وعندما خرجت طائراتنا لمطاردة السرب الإسرائيلى ، كان الخزان الإضافى يمثل عبئا على سرعة الطائرة حتى وهو خال ، لذلك . . . ولأن الطيارين الإسرائيليين كانا فى مهمة استطلاعية وليست مهمة قتالية ، فلقد عمدا إلى التخلص من خزانى الوقود الإضافيين ، حتى تأخذ طائرتاهما أقصى سرعة ممكنة . . . وشاهد الناس ـ على الأرض ـ الخزانين وهما يسقطان فى البحر !

. . . وفى تلك الأيام كانت الحرب الخفية يشتد أوارها يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة . . . وكان اكتساب جهاز المخابرات المصرى لخبرات جديدة وتمكنه من مهمته يزيد من اشتعال هذه الحرب بطبيعة الحال ، وفى كل يوم كان هناك خبر جديد كذلك الخبر الذى وصل إلى القاهرة مؤكدا من مصادره بأن إسرائيل تجرى التجارب على سلاح جديد يطلق أشعة غير مرئية ، إذا ماسقطت على العين أصابتها بالعمى ودمرت خلاياها ! !

كان الخبر خطيرا خاصة أن مصدره أكد صحته ، كما أكد أنه شاهد بنفسه بعض المصابين بهذه الأشعة الغريبة وهم يعالجون فى مستشفيات

إسرائيل . . . وبدأت القاهرة تحرياتها على الفور ، وكان رأفت الهجان ، هو الذى جاء بالحقيقة كاملة ! .

اتضح أن إدارة الأبحاث فى الجيش الإسرائيلى كانت تقوم بتجارب على نوع جديد من الرادارات الأرضية التى تستطيع كشف « الأفراد » والمركبات الصغيرة ، وهو رادار كانت إسرائيل تريد استعماله للكشف عن المتسللين إلى حدودها من الفدائيين الذين أحالوا الحياة فيها إلى جحيم . . . هذا النوع من الرادار كان يطلق فيما حوله نوعا من أشعة الليزر التى تصيب الطاقم الذى يقوم بتشغيله ببعض الأضرار فى العين ، أى أنها لاتصيب الهدف البعيد . . . وكانت الأبحاث التى قامت عل قدم وساق ، تدور حول كيفية حماية الطاقم الذى يقوم بتشغيل الرادار من تلك الأشعة التى يطلقها على من حوله ! !

. . . .

. . . .

وهكذا راحت الثقة فى رأفت الهجان تتزايد يوما بعد يوم ، بل وصل الأمر إلى حد أن الشك بدأ ينتاب البعض لوفرة المعلومات التى كانت تصل منه . . . قال عزيز الجبالى عن هذا الأمر :

« . . . . ومن فرط وفرة المعلومات وأهميتها ، دق فى رءوسنا جرس إنذار معروف جيدا لكل من يعمل فى ميادين المخابرات ، وهو الشك فى أن تكون هذه المعلومات مدسوسة بغرض التضليل ! »

ومرة أخرى انطلقت التحريات فى كل اتجاه تبحث عن الحقيقة حول

الفتى ، ليس هذا فقط ، بل وجهت إلى شبكته أسئلة « اختبارية » ـ إن صح التعبير ـ لمعرفة مدى الصدق أو الدس أو . . . أو . . . وإذا بكل النتائج تأتى كى تؤكد أن رأفت الهجان قد وصل إلى مستوى أعلى بكثير مما كان متوقعا . . . وهكذا ، بدأ التفكير فى إعطائه دورة تدريبية جديدة ، ترتفع به ـ فى القدرات والمسئولية ـ إلى مايقرب من مستوى « ضابط الحالة » . . . دورة كان لابد أن تطور فيها أعمال الفتى ونشاطاته تطويرا حاسما ، خاصة فى نقطة الضعف القاتلة فى كل شبكة من شبكات التجسس فى العالم ، وهى « وسيلة الاتصال » !

وإذا كانت الاحتياجات التى كانت ترسل إلى الفتى تأخذ واحدا من طريقين ، هما طريق الكتابة بالحبر السرى ، أو طريق اللقاء الشخصى . . فلقد كانت هاتان الوسيلتان شديدتى البطء فى وقت اشتدت فيه الحاجة إلى الحصول على المعلومات بأسرع مايمكن . . . فوق أن وسيلة الخطابات المكتوبة بالحبر السرى ، والتى كانت ترسل إليه فى النادر ، كانت قد أصبحت شديدة الخطر بعد أن اكتشف العلماء فى مصر وإسرائيل ـ فى نفس الوقت تقريبا ـ جهازا حساسا ، يكفى أن تمر من تحت عدسته ، فوق سير جلدى متحرك ، كل الخطابات الواردة من الخارج . . . فإذا ماكان أحد هذه الخطابات يحوى مواد غير عضوية ـ وهى المواد المكونة لأغلب الأحبار السرية ـ أعطى هذا الجهاز إنذارا على الفور !

كان هناك عامل الزمن إذن ، كما كانت هناك ضرورة الكف عن إرسال خطابات مكتوبة بالحبر السرى لحين اكتشاف حبر يعجز هذا الجهاز الحديث عن اكتشافه !

ولقد كان التدريب على رموز اللاسلكى ، وهى المعروفة دوليا باسم إشارات « مورس » ، واحدة من امنيات عزيز الجبالى المبكرة . . . كانت تراود خياله تلك العلاقة المباشرة بينه وبين الفتى بواسطة اللاسلكى حيث يستطيعان أن يتبادلا الحديث والمعلومات إرسالاً واستقبالا كل يوم إن أرادا . . . لكنها أيضا كانت واحدة من أعوص المشاكل التى واجهت هذا الضابط الشاب ، ليس فقط لأنها شىء جديد تماما كان على الفتى أن يتدرب عليه ، ولكن لأن رموز اللاسلكى كانت تحتاج إلى شهور كى يتقنها المرء إرسالا واستقبالا . . . وهكذا ، لم يكن أمام عزيز الجبالى سوى أن يحمل أحلامه تلك إلى خبير الاتصالات الدولية : « خالد عز العرب »

. . . .

. . . .

كان خالد عز العرب عالما حتى أطراف أصابعه ، حقق على مدى سنوات قليلة فى وسائل الاتصالات اللاسلكية ـ مع مجموعته المنتقاة من العلماء الشبان ـ انجازات تبعث على الدهشة والاعجاب الشديدين . . . كان نحيلا ، متوسط الطول ، عصبى المزاج ، لاتغادر السيجارة شفتيه ، يبدو فى سيره وكأنه يبحث عن شىء بين قدميه ، فهو دائما مطرق ، تائه النظرات ، سريع الكلمات حتى ليضطر من يستمع إليه إلى التركيز الشديد فيما يقوله حتى لاتفوته كلمة من كلمات الرجل التى تخرج من بين شفتيه سريعة متلاحقة بل ومتزاحمة

. . . وعنـدمـا عرض عليه عزيز فكرة تدريب الفتى على الاستقبال والإرسال اللاسلكى ، سأله خالد فى ضيق لامبرر له :

« انت تعرف حاجة عن اللاسلكى يا أخينا ؟ ! »

« أعرف مبادىء ! »

«طب مش تسأل قبل ماتاخد القرار ؟ ! »

وسأل عزيز .

كانا يجلسان فى إحدى غرف شقة فى عمارة فى وسط المدينة ، على باب الشقـة وضعت لافتة كتب عليه : « الشركة العالمية للتليفزيون والـراديو » . كان التليفـزيون فى ذلك الوقت لايزال حديث عهد فى مصر ، وكان باب هذه الشركة مفتوحاً على الدوام ، تواجه الداخل إليه مائدة طويلة رصت عليها أجهزة تليفزيون بعضها فى انتظار الإصلاح والبعض يعمل بلا توقف وقد تم إصلاحه ، خلف المائدة غرفة عكف فيها عدد لابأس به من المهندسين والفنيين على أجهزة راديو وتليفزيون فى محاولة لإصلاح مابها من عطب . . ولأن الشقة كانت فى عمارة من تلك العمارات القاهرية القديمة ، فلقد كان عمقها يفضى إليه باب زجاجى مغلق ، لاأحد يعرف ما الذى وراءه ، فى إحدى تلك الغرف خلف البـاب الـزجـاجى وقف خالـد عز العـرب أمام عزيز الجبالى وسيجـارتـه ترسل دخانها بين شفتيه بلا توقف ، ومن حولها تناثرت مجمـوعـة هائلة من الأجهـزة الغـريبة والمعقدة وقطع الغيار والمعدات . . . . فى الغرف المجاورة ـ خلف الباب الزجاجى أيضاً ـ كانت هناك تلك المجمـوعـة الفـذة من العلماء الشبان الذين تخصصوا فى وسائل

الاتصـال ، التى كانت باكتشاف الترانزستور تتطور باطراد . . ساد الصمت ـ وقد انتهى عزيز من السؤال ـ لثوان حتى قال خالد :

« انت عاوز تعلمه إرسال واستقبال ؟!»

« طبعاً ! »

« ليه . . انت مستغنى عنه ؟!»

« مش فاهم ؟!»

« لأنك لو خليته يبعث لك باللاسلكى من هناك ممكن ينكشف ! »

« والحل ؟!»

« نقسم البلد نصين ! »

« إزاى ؟!»

وهكـذا راح الـرجـل يشرح وجهـة نظره . فلو أن الفتى استقبل الاحتياجات المرسلة إليه بطريق اللاسلكى ، فلن يحتاج هناك إلا إلى جهاز راديو عادى جدا ولكنه يتميز بالحساسية ، ثم إنه سوف يتسلم الرسائل فى نفس اللحظة التى ترسل إليه فيها ، وبذلك ينتفى الخطر من حوله تماما حتى لو ضبطت موجة اللاسلكى وحلت الشفرة . . . ذلـك أن موجـات الـلاسلكى تبث إلى كل مكـان فى العـالم بما فيه إسرائيل ، وبذلك ، يصبح الكشف عمن يستقبل هذه الإشارات أو الرسائل أمرا مستحيلا . . . . وعلى الوجه الآخر ، يستطيع الفتى أن يرسل معلوماته بالحبر السرى الذى كان يتطور يوما بعد يوم دون خوف عليه ، فحتى لو ضبط الخطاب المرسل منه ، فكيف يصلون إلى من

أرسل هذا الخطاب وسط الملايين الذين يعيشون فى اسرائيل ؟ !

ولقد اقتنع عزيز بالفكرة تماما ، خاصة وأنه كان قد نما إلى علمه أن فريق العلماء المصريين توصلوا إلى حبر سرى من الممكن أن يشبع به منديل أو قطعة ملابس ، بحيث يبدو القماش طبيعيا تماما ، فلا رائحة ولالون ولا أثر يدل عليه ، فإذا ماوضع المنديل أو قطعة الملابس فى مّياه عادية ، وبمعاملات بسيطة ، تحولت المياه الى حبر سرى من الصعب اكتشافه !

لكن خالد عز العرب عاد يسأل بعصبيته الطبيعية :

« بس برضه ، إذا كنت عاوز تعلمه «المورس» تبقى عاوز وقت طويل ! »

« مفيش وقت ياخالد ! »

« تبقى تعلمه رموز الأرقام وبس ! »

« من صفر لتسعة ؟ ! »

« عشرة على عشرة ! »

« ودى تاخد قد إيه فى التدريب ؟ ! »

« أسبوع بالكثير ! »

« وبعدين ؟ ! »

« تروح لسعيد مظهر وتطلب منه شفرة . . . انت تبعت له الرسالة . . . ومهما كان حجمها ، بالأرقام ، وهو هناك يحول الأرقام لكلمات ، ويادار مادخلك شر ! »

وهكذا غادر عزيز الجبالى ذلك العالم « خالد عز العرب » إلى عالم

آخر هو « سعيد مظهر » . . . غير أنه كان قد أسر فى نفسه أمرا : هو أن يحارب باذلا أقصى مالديه من جهد ، حتى يدفع خالد إلى السفر كى يدرب الفتى بنفسه على استقبال الإشارات اللاسلكية !

كان عزيز يعرف ماهى الشفرة الرقمية بطبيعة الحال قبل أن يلتقى بسعيد مظهر ، فهى شفرة تعتمد على وجود كتاب معين مع كل من المرسل والمستقبل ، نفس الكتاب بنفس الطبعة . . . فإذا ماوصلت الرسالة إلى الفتى ـ مثلا ـ فلسوف تصل إليه عبارة عن مجموعات متتالية من الأرقام المرتبة ترتيبا رياضيا ، ولكنه ـ حسب جدول معين ـ يستطيع بعض العمليات الحسابية أن يخرج الكلمات أو الحروف المقابلة للرقم المرسل من إحدى صفحات هذا الكتاب بالذات . . . وبذلك ، يصبح من المستحيل حل الشفرة ، إلا بوجود الكتاب !

وعلى النقيض من خالد عز العرب كان سعيد مظهر ـ عبقرى الشفرة المصرى ـ من ذلك النوع الهادىء الساهم . . . كان يحتل مع مجموعة من معاونيه عددا من الغرف التى يخيم عليها السكون والهدوء لدرجة تبعث على الرهبة إلى نفس الغرباء . . . ما إنْ طرح عزيز طلبه على سعيد ، حتى قال هذا فى صوت خافت :

« أنا عندى لك شفرة كويسة جدا ! »

ثم راح على الفور ، يشرح سر الشفرة الجديدة لعزيز الجبالى الذى غادر الرجل بعد ساعة واحدة ، راضيا كل الرضا ! !

●●●

كان على عزيز الجبالى - قبل أن يعود إلى مكتبه - أن يشترى نسخة من كتاب ، أى كتاب ، هو الذى سوف يستعمل فى حل الشفرة الرقمية التى اتفق مع سعيد مظهر عليها . . . لكنه ، منذ أن غادر ذلك العالم الفذ ، لم يستطع إلا أن يتذكر ذلك الذى حدث فى لندن ، قبل نشوب الحرب العالمية الثانية . . . فراح ، وهو يضرب فى شوارع القاهرة ، يتذكر القصة .

ذات يوم ، فى أوائل ١٩٣٩ ، دخل الملحق العسكرى الألمانى فى إنجلترا ، إلى إحدى مكتبات لندن ، وراح ينتقى إحدى القصص الإنجليزية الحديثة . . . كان الرجل « زبونا » فى هذه المكتبة تعود على ارتيادها بين الحين والحين ، ومن ثم ، فلقد كان معروفا لصاحب المكتبة الذى رحب به . . وانتقى الرجل قصة عادية تماما ، دفع ثمنها ، وانصرف !

كان الأمر طبيعيا للغاية ، ولم يلفت نظر صاحب المكتبة ، ولكن . . . بعد بضعة أيام ، دخلت إلى نفس المكتبة ، زوجة الملحق العسكرى الألمانى ، فرحب بها صاحب المكتبة ترحيبه بزبون دائم ومحترم ، وراحت السيدة تبحث عن كتاب ، وجاءت المصادفة التى بعثت الشك فى نفس الرجل ، عندما اختارت زوجة الملحق العسكرى الألمانى ، نفس القصة التى اشتراها زوجها منذ بضعة أيام . . . دفعت السيدة ثمن الكتاب وانصرفت ، لكنها تركت الشك معلقا فى صدر الرجل الذى راح يتساءل عن السر فى أن يشترى الملحق العسكرى الألمانى نسختين من كتاب واحد . . . وأخيرا ، وعندما لم يجد الرجل

إجابة شافية ، لم يجد مناصا من التبليغ عن الأمر !

وكان هذا التبليغ بالذات ، هو الذى كشف الشفرة المستعملة بين السفارة الألمانية فى لندن ، وقاعدتها فى برلين . . . وأصبحت كل الوسائل السرية بين ألمانيا وسفارتها فى بريطانيا مكشوفة تماما أمام الإنجليز !

وبالرغم من أن عزيز الجبالى لم يكن فى دولة أجنبية ، فإن حرصه البالغ ، دفعه إلى اتخاذ الحيطة الكاملة ، ليس فى انتقاء الكتاب فقط ، بل فى شراء النسخة الثانية منه . . . .

بداية ، كان لابد للكتاب ، الذى سيوضع فى بيت الفتى ، أن يكون فى دائرة اهتمام شخصية مثل شخصية ديفيد شارل سمحون ، بمعنى . . . أن يكون موضوع الكتاب من تلك الموضوعات التى تستهوى شخصا مثله . . . وعندما دخل عزيز الجبالى إحدى المكتبات فى وسط القاهرة ، راح يطالع عناوين الكتب الإنجليزية والأمريكية فيها ، كان هناك شرط أساسى لاختيار الكتاب ، وهو ألا يكون هناك ، على غلافه أو إحدى صفحاته الداخلية ، أية إشارة إلى المكتبة التى ابتاع منها الكتاب . . . ولقد وجد الرجل ضالته فى ركن يحوى بعض الكتب التى وصلت حديثا . . . وسطها ، وجد كتابا فى علم النفس عنوانه : « كيف تسيطر على المرأة » فلم يتردد فى شراء نسخة واحدة ، دفع ثمنها وانصرف !

كانت تكفيه تلك النسخة الخالية من أية إشارة إلى المكتبة كى يرسلها إلى الفتى . . . ثم انتظر أياما ، وطلب إلى أحد أصدقائه - كان

صاحب مكتب استشارى قريب من المكتبة ، وفى نفس الوقت كان جارا له - أن يشترى له نسخة من الكتاب . . . ولقد ضحك صديقه من الأعماق عندما عرف عنوان الكتاب . وتبادلا النكات والقفشات حول الموضوع ، لكن الصديق فى النهاية ، جاءه بتلك النسخة الأخرى !

والآن ، لم يعد أمام عزيز الجبالى سوى الجلوس إلى نديم هاشم لوضع خطة لتدريب الفتى على المستوى الجديد والمنشود - الشديد القرب من ضابط الحالة - ولقد كان فى ذهنى عزيز ونديم بطبيعة الحال ، أن رأفت الهجان يعيش فى معزل عن قاعدته ، فكان لابد له من القدرة على الحركة والتصرف دون الرجوع إليها إذا استلزم الأمر ، كان لابد لرأفت من التدريب - مثلا - على دفع رجُليه - دان رابينوفيتش وإيزاك بن عميتاى - ودون أن يطلب إليهما ذلك بشكل مباشر ، إلى البحث عن أفراد آخرين لتجنيدهم بحيث يكوِّن كل واحد منهما شبكة خاصة به . . . ذلك أن كليهما كان ضابطاً كبيرا يستطيع إمدادنا بما نحتاج إليه من قضايا رئيسية ، لكننا كنا - أيضا - فى حاجة إلى تفاصيل أكثر من داخل وحدات الجيش الإسرائيلى ومعسكراته ، تفاصيل تحتاج إلى ضابط صغير يعيش وسط الجنود وفى قلب القاعدة ، وحيث تبدو التفاصيل المتداولة شديدة الأهمية !

وهكذا بدأت سلسلة من الاجتماعات لوضع تلك الخطة المتكاملة ، لإنهاء تدريب الفتى على كل هذا فى مدة يجب ألا تتجاوز الأيام العشرة بحال من الأحوال !

ضم الاجتماع الأول : « شريف والى » رئيس هيئة الخدمة السرية ، ونديم هاشم ، وخالد عز العرب . . . وبالطبع عزيز الجبالى .

كانت النقطة الأولى التى طرحت للبحث هى ، أين يتم التدريب ؟ ! !

أن اختيار المكان له شروط أساسية منها : ألا يكون موضع شك ، وأن يكون بعيدا عن العمران حتى يسهل كشف أية مراقبة ، وأن يكون - وهذا مهم للغاية - صالحا للإقامة دون مغادرة لفترة تمتد إلى تلك الأيام العشرة التى قدر إنهاء المهمة خلالها ، ودون أن تثير هذه الإقامة الدائمة ، أى نوع من التساؤل أو الشكوك !

كان طبيعيا أن يفكر الرجال فى القرى النابتة على سفوح جبال سويسرا ، حيث لايهتم أحد بأحد ، وحيث يعيش الناس فى عزلة عن بعضهم البعض . . . كان طبيعيا أن يفكروا فى التيرول أو الريڤييرا الفرنسية أو الإيطالية ، ولم يكن هذا كله يهم خالد عز العرب - الذى قبل المهمة بعد حوار دام لساعات ، فلقد كان يرى أن عمله الرئيسى وسط أجهزته ومعاونيه وفى معمله - فى شىء . . قال إن وسائل التأمين شاغلهم وهذا حقهم ، لكن شاغله الوحيد الآن ، هو صلاحية المكان للاستقبال اللاسلكى !

« إذا كنتوا حاتبعتوا رسائلكم لإسرائيل ، يبقى لازم نختار مكان تكون طبيعته قريبة منها ! »

« يعنى إيه ؟ ! »

هكـذا سألـه شريف والى ، فرد عليه قائلا : « لازم نختار مكان تكون زاوية ميل الجبال فيه ، قريبة من زاوية ميل الجبال فى إسرائيل ! »

تبادل الواقفون النظرات فلقد كان الأمر يحتاج إلى معرفة واضحة بجغرافية المكان المختار ، ولقد أراد خالد عز العرب أن يوضح وجهة نظره فأضاف :

« إذا كنا حاندرب الجدع ده على الاستقبال ، يبقى لازم يعمل كام تجربة قدامى ، ويستقبل من هناك كذا رسالة ، ويحلها قبل مايرجع إسرائيل ! »

كان كلامه منطقيا فلم يعقب أحد ، وأردف هو بعد لحظات :

« ثم إنى عاوز أتـأكـد إن الإشارات حاتوصل له بوضوح ، وإن الاستقبال حايبقى طبيعى ! »

قبل أن يعود الحديث إلى مجراه ، امتدت يد عزيز إلى الخريطة التى كانت تتـوسطهم ، ووضع أصبعه فوق جزيرة قبرص ، ثم دق عليها منبها فصاح نديم هاشم :

« قبرص ياعزيز ؟ ! »

« ده رأيى »

« قبرص مليانة سواح إسرائيليين خصوصا فى الأيام دى ! »

« ده صحيح ، بس فيها حاجتين مهمين قوى ! »

« إيه هم ؟ ! »

« الحـاجة الأولانية إن جبالها غالبا حاتكون زاوية الميل فيها قريبة

جدا من زاوية الميل فى جبال إسرائيل ! »

صاح نديم محتجا :

« طب ماعندنا التيرول وجبالها لها نفس زاوية الميل ! »

ابتسم عزيز ابتسامة لم يغب معناها عن نديم :

« بس التيرول فيها سواح على مستوى ! »

« ودى فيها إيه ؟ ! »

« فيها إن السيطرة فى التيرول على رأفت حاتبقى صعب شوية ! »

زام نديم مغمغما وقد اتضح له مايرمى إليه عزيز الذى أردف مؤكدا وجهة نظره :

« حاتقدر تسيطر إزاى على واحد زيه وحواليه أجمل بنات فى الدنيا ؟ ! »

« وهى قبرص مافيهاش بنات ؟ ! »

«فيها . . . إنما كمان فيها سواح يهود على مدار السنة . . . وبالشكل ده ، رأفت حايخاف يظهر هناك ويضطر يقعد معاك فى البيت الآمن لحد مايخلص تدريب ! »

وكـانت هذه هى النقـطة الثـانية ، والفاصلة ، التى أثارها عزيز الجبالى . . والتى رأى فيها أهمية يجب عدم التغاضى عنها . . . وعلى كل ، فلقد ابتسم نديم مقتنعا ، وقال شريف والى وقد وصلت المناقشة إلى شاطىء واضح :

« على بركة الله » .

●●●

بينما كانت الاستعدادات فى القاهرة تجرى على قدم وساق تمهيداً لتلك المرحلة التى ستنقل الفتى إلى مستوى يستطيع فيه أن يخدم وطنه بطاقات مثالية . . . كان رأفت الهجان ، فى إسرائيل ، يعيش أياما من أحلك أيام عمره !

فى ذلك الوقت كان الفتى منهمكا أشد مايكون الانهماك فى وضع اللمسات الأخيرة فى ذلك البناء الذى أوشك على الاكتمال بشبكتيه العسكرية والمدنية ، وإلى جانب هذا النشاط الذى اجتاح شركته ، بعد أن وصلت سمعة خدماتها المثالية إلى مساحة واسعة من المجتمع الإسرائيلى ـ كانت هناك تلك السمعة التى اكتسبتها الشركة مع مثيلاتها فى اليونان وقبرص وإيطاليا وفرنسا وبريطانيا ، وعبرت المحيط إلى بعض الفنادق والشركات السياحية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

كان عدد الموظفين فى الشركة قد تضاعف وإن احتفظت « يهوديت موردخاى » ـ سكرتيرته ـ بمكانتها القريبة منه ، بعد أن عرفت حدودها واكتفت من حب الفتى بما كانت تناله منه من فتات يصيبها بين الحين والحين ! !

حتى كانت ليلة !

كانت يهوديت تعرض عليه بعض الخطابات والبرقيات ولكن ملامحها أنبأته بثورة وشيكة من تلك الحسناء التى حاولت ـ عبثا ـ أن تحتل فى حياته مكانة استير بلينسكى . . . تعلم من تجربته الأخيرة ألا يترك الحبل على الغارب لتلك العلاقات العاطفية التى قد تكلفه

الكثير ، تصنع التجهم والضيق وراح يلقى ببعض الملاحظات الجافة حتى يسد أمامها الطريق إلى الاحتجاج أو إعلان الغيرة . . . دق جرس التليفون بجواره فرفع السماعة وما إن جاءه صوت سيرينا أهارونى حتى تهلل صائحا :

« مرحى أيتها الحبيبة ! »

لم تكن يهوديت بالطبع تعلم من تلك الحبيبة التى تهلل رئيسها لسماع صوتها ، وقبل أن تسترسل سيرينا فى الحديث استمهلها الفتى لثوان ثم أخذ يلقى إلى سكرتيرته ببعض التعليمات التى كانت تطلب إليها ـ دون تصريح ـ مغادرة الغرفة . . . شحب وجه الفتاة شحوبا مزق قلبه حقا ولكنه كان يدرك أن هذا هو السبيل الوحيد ، غادرت الفتاة الغرفة وأغلقت الباب فعاد إلى التليفون :

« سيرينا ، كيف أنت أيتها العزيزة ! »

جاءه صوتها منفعلا وكانت تتحدث بالعبرية :

« ديفيد . . . هل أنت مشغول الليلة ؟ ! »

كان الفتى يعلم أنها تعمد إلى الحديث بالعبرية إذا ماكان هناك مايقلقها ويشغل بالها ، ورغم هذا فلقد ضحك لسؤالها لأنه كان على موعد لقضاء السهرة عندها فى نفس الليلة ، لذلك فلقد تساءل :

« أتريدين تأجيل الموعد أو إلغاءه ؟ ! »

« بل أريدك أن تحضر مبكرا ، وقبل أن يأتى الآخرون ! »

عرف أنها تتحدث من الهستدروت فلقد كان صوتها خافتا وكأنها تتحدث إليه بسر . . . أدرك أن فى الأمر شيئا فاستجاب :

« متى تريدين منى الحضور ؟ ! »

« الآن إن استطعت ، فلسوف أغادر الهستدروت إلى البيت فوراً »

عبثا حاول الفتى أن يخمن وهو فى طريقه إلى بيت سيرينا أهارونى ، سر ذلك الاستدعاء الغامض ، انتابه القلق وأخذ يعصف به طوال الطريق لسبب غير مفهوم . . . عرج ـ وهو فى طريقه إلى بيت سيرينا ـ إلى تلك البقعة من الشاطىء التى تعود ـ كلما ألمَّ به القلق ـ أن يلجأ إليها . . . توقف بالسيارة وراح يرقب البحر الغارق أمامه فى الظلام ، تمنى فى لحظة لو أقله قارب سحرى عبر المتوسط إلى الإسكندرية . . . راح يتساءل : إلى متى سيعيش تلك الحياة وذلك القلق الدائم ليل نهار ؟ ! . . . هو موقن من أن سيرينا تحبه حبا عظيما وتخاف عليه أكثر من أى إنسان آخر فى هذا الكون ، يعلم أنها ـ كما قالت له ذات ليلة ـ تعتبره كل عائلتها بعد أن فقدت الجميع . . . للمرة العاشرة ـ ربما ـ راح يتساءل عن سر هذا الانفعال وسر رغبتها فى الانفراد به ؟ ! . . . هل أبلغ دان أو إيزاك عنه فبلغها الخبر وأرادت أن تحذره قبل أن يطبقوا عليه ؟ ! . . . أحس برغبة عارمة فى الموت فما قيمة حياة كتلك التى يحياها فوق أتون من الشك تحرقه ألسنة لهب ليل نهار . . . عاد إلى السيارة ثقيل الخطى فلم يكن هناك مفر من الذهاب ولم يكن هناك وقت للتأمل ولابد له أن يراها قبل وصول الآخرين . . . عندما وصل إلى بيتها كانت فى انتظاره عند الباب وقد استبد بها القلق .

« ديفيد ، لَمَ تأخرت ؟ ! »

« ماذا هنالك ياسيرينا ؟ ! »

بدت مضطربة مغيظة وهى تأخذه إلى ركن فى البيت متحدثة إليه بالعربية :

« قبضوا النهارده على جاسوس بيشتغل لحساب مصر ! »

انقبض قلبه وهو يحملق فى تلك السيدة التى اشتعل مع الاضطراب جمالها الدفين فبدت له وكأنها نجمة من نجوم السينما الأمريكية أو الفرنسية . . . راودته الظنون وهو لايدرى لم خطر بباله أن سيرينا أهارونى تعمل هى الأخرى لحساب مصر ؟ ! . . . قال متحسسا طريقه إليها :

« ودى فيها إيه ياسيرينا ؟ ! »

« فيها إنهم دلوقت مصابين بحمى اسمها جواسيس مصر ! »

« علشان قبضوا على الرجل ده ! »

« مش بس ! »

« فيه إيه تانى ؟ ! »

« جاسوس ضحك عليهم وهرب منهم ! »

عاد الشك يعربد فى صدر الفتى ممزقا ذلك الإحساس القشرى بالأمن الذى استشعره طوال الشهور التى مضت :

« سيرينا ، ممكن تهدى شوية وتفهمينى إيه اللى حصل بالضبط ؟!»

وراحت سيرينا تحكى له القصة التى سمعتها من واحد من كبار المشتغلين بالسياسة منذ ساعات قليلة ، هو واحد من « السفارديم » ـ يهود الشرق ـ الذى كان يحكى لها والقلق والغضب يعصفان به . . . انتقلت من الحديث بالعربية إلى الحديث بالفرنسية وكانت تعرف أن الفتى يتقنها ، قالت :

« أنت تعلم أنهم ـ منذ فترة ـ يشكون فى وجود شبكة تجسس تعمل لحساب المصريين فى تل أبيب . . . وأن هناك معلومات مؤكدة تشير إلى أن هذه الشبكة قد توصلت إلى الكثير من أسرارنا ، ولقد بلغ بهم الأمر أنهم راحوا يراقبون بعض الوزراء ومستشارى رئيس الوزراء ، حتى إذا أعيتهم الحيلة ، هداهم تفكيرهم إلى أن ينصبوا فخا يوقعون به واحدا من أفراد تلك الشبكة التى يؤرقهم نشاطها . . . فإذا ماقبضوا على واحد منهم ، يصبح الأمر ـ كما تعلم ـ بعد ذلك هينا ! ! »

« نحن نظن أن هذه كانت البداية التى قادت الموساد إلى القبض على الجاسوس الإسرائيلى الخطير « دكتور إسرائيل بيير » الذى كان يشغل مناصب مهمة فى جهاز الحكم الإسرائيلى ، منها ، وربما كان أقلها شأنا ، انه كان مستشارا شخصيا لرئيس الوزراء الإسرائيلى فى ذلك الوقت « ديفيد بن جوريون » . . . والذى قبض عليه بعد شهور قليلة من ذلك الحديث الذى تم بين سيرينا أهارونى ورأفت الهجان ، وكان هذا فى أوائل عام ١٩٦١ . . . . ولقد قيل إن دكتور « إسرائيل بيير » كان يعمل لحساب المخابرات السوفييتية ـ جاء هذا فى كتاب « الموساد » الذى أصدره الكُتّاب الإسرائيليون الثلاثة « دينيس ايزنبرج ، وايلى لاند ، وأورى دان » ـ بينما هناك قول آخر بأنه كان يعمل « بشكل ما » مع المخابرات المصرية !!»

وعلى كل . . . فلقد كانت السيدة أهارونى على حق تماما فيما قالته للفتى ، فلقد دس الإسرائيليون ـ بالفعل ـ على المصريين خبرا ملفقا يقول إن « بحثا » اقتصاديا على جانب كبير من الأهمية ، ويتناول أدق شئون الاقتصاد الإسرائيلى ، بما فى ذلك الميزانية العسكرية يباع فى إحدى مكتبات تل أبيب ، ثم دسوا ـ مع الخبر ـ اسم المكتبة وعنوانها !

لم تكن هذه المكتبة مكتبة عادية لبيع وشراء الكتب أو البحوث ، بل كان قسما يتبع إحدى الوزارات الإسرائيلية ، وكان الموظفون الذين يعملون فى هذا القسم بالذات ، هم فى حقيقة أمرهم من رجال « الموساد » . . . وعلى ذلك ، فلقد كان يكفى أن يذهب أحد إلى هذا القسم طالبا ذلك البحث أو الكتاب بالذات ـ الذى لم يكن مطروحا للبيع أو التداول وليس معروفا للناس ـ حتى يضعوا أيديهم على أحد أفراد الشبكة التى حيرهم أمرها كثيرا . . . وبعد هذا يصبح الأمر سهلا ، ويقع أعضاء هذا التنظيم السرى ، فى الفخ المنصوب !

قال رأفت الهجان فيما بعد : إنه كان يستمع إلى سيرينا وقلبه يخفق فى عنف وسرعة جعلا قدرته على التركيز والاستماع ومتابعة الحديث نوعا من العذاب ، خاصة أن السيدة أهارونى راحت تنتقل فى حديثها ـ شأنها شأن اليهود المصريين ـ من الفرنسية إلى العربية مما كان يفضح اضطرابا حقيقيا وقلقا بالغا !

ولقد حدث منذ أسابيع ـ هكذا واصلت سيرينا حديثها ـ أن وصل إلى إسرائيل سائح إيطالى الجنسية يدعى « البرتوبولدونى » . . . وفى اليوم التالى لوصوله إلى تل أبيب ، توجه السيد « بولدونى » ـ الذى كان

يشغل وظيفة باحث فى إحدى الشركات الإيطالية الكبرى - إلى تلك المكتبة المزعومة طالبا شراء هذا « البحث » . . . ولم ينتبه الرجل إلى النظرات التى أحاطته - فور طلبه ذاك - من كل جانب . . . وعلى كل ، فلقد قدموا له الكتاب وقبضوا ثمنه ، وعاد المسكين إلى فندقه مطمئنا تماما ، أودع الكتاب فى حقيبته ، ثم قضى بقية أيامه فى إسرائيل فى سياحة حقيقية ، لم يتصل بأحد ، ولم يتصل به أحد . . . وهو لايدرى أن كل خطوة من خطواته كانت مراقبة بدقة ، وأن غرفته فتشت بعناية ولأكثر من مرة . . . ثم ، وعندما حان موعد عودته إلى بلاده ، ألقوا القبض عليه وهو فى طريقه إلى المطار ! !

توقفت سيرينا عن الحديث لاهثة الأنفاس فسألها الفتى :

« وهل اعترف هذا الرجل بشىء ؟ ! »

« الكارثة أنه لم يعترف بشىء على الإطلاق ! ! »

كان هذا مايعنى الفتى حقا ، لكنه عاد إلى التساؤل :

« وكيف فسر شراءه لهذا الكتاب ؟ ! »

« قال إن صديقا أمريكيا يقيم فى روما ، أعطاه اسم المكتبة وعنوانها ، وطلب إليه شراءه ! »

« وهل تحروا عن هذا الصديق الأمريكى ؟ ! »

« لم يجدوا له أثرا لا فى روما ، ولا فى ايطاليا كلها ! »

«وما الذى قاله الرجل ؟ ! »

« أصر على موقفه ، وأنه لايعرف شيئا سوى ما أخبرهم به ! »

« ربما كان الأمر كذلك بالفعل ! »

« لولا ما حدث بعد ثلاثة أسابيع من تاريخ القبض عليه ! »

وكان الذى حدث مثيرا بكل المعانى . . . فبعد مرور تلك الأسابيع التى تكتموا فيها خبر القبض على السيد « البرتوبولدونى » دخل إلى نفس المكتبة رجل آخر يطلب نفس البحث . . . ولقد ارتبك الموظف الذى استقبله فلم يكن مستعدا لمثل هذا الطلب بعد القبض على السيد الإيطالى . . . فما كان منه إلا أن اعتذر للرجل لأن الكتاب غير متوافر الآن فى المكتبة ، وطلب إليه أن يمر عليه فى اليوم التالى . . . فدفع الرجل ثمن الكتاب حرصا منه على حيازة نسخة ، وتسلم إيصالا بالمبلغ ، ثم قال للموظف إنه ربما سيكون مشغولا فى اليوم التالى ، ولذا فلسوف يرسل صديقا يحمل الإيصال كى يتسلم البحث بدلا منه !

وكان هذا ماحدث بالفعل

ففى اليوم التالى جاء الصديق - الذى رأت فيه الموساد صيدا جديدا - والذى كان مواطنا إسرائيليا يعمل موظفا بالميناء ، قدم الإيصال وتسلم الكتاب كما تسلمه رجال الموساد بالمراقبة وهم يمنون أنفسهم بإيقاع الشبكة بين يوم وآخر . . . فها هو مواطن إسرائيلى يتعاون مع تلك الشبكة الخطيرة !

ولأيام طالت راحوا يراقبون ذلك الرجل المسكين فى كل لحظة من لحظات حياته ، فى عمله وبيته ، فى ليله ونهاره ، دون أن يظهر عليه مايريب . . . وفى النهاية ، وعندما ألقوا القبض عليه ، اكتشفوا أنه

ضحية خدعة ـ أو هكذا ادعى ـ من بحار كان يعمل على إحدى السفن التى كانت راسية فى الميناء .

قال موظف الميناء الإسرائيلى إن هذا البحار كان صديقا له ، وإنه طلب إليه أن يتسلم البحث بدلا منه لأنه كان مشغولا بالعمل فوق سطح السفينة التى كانت ستبحر فى نفس اليوم ، وعندما اشترى الموظف المسكين ذلك البحث وذهب إلى عمله ، جاءه البحار وكان يحمل فى يده ملفا به بعض الأوراق التى تحتاج منه إلى توقيع لاتمام عدد من الإجراءات الروتينية ، ولقد أنهى البحار عمله ، وتسلم البحث شاكرا صديقه الإسرائيلى على حسن صنيعه ، ثم ـ هكذا تذكر الموظف الذى كان يرتجف من الرعب ـ وضع الكتاب داخل ملف الأوراق وعاد به إلى السفينة دون أن ينتبه أحد إلى الملف البرىء المظهر ، وقد أضيف إليه البحث المنشود !

صمتت سيرينا أهارونى وكانت لاتزال تلهث ، كما لاذ الفتى هو الآخر بالصمت وكانت أفكاره تصطخب فى ذهنه كبحر هائج ثائر مربد الموج . . . راحت تتحدث مع رأفت الهجان قائلة إن هروب هذا البحار ـ إن كان هناك بحار بالفعل ـ وبهذه الطريقة ، قد أصابهم بالجنون . . . وإن تلك الجرأة التى دفعت المصريين إلى معاودة الكرة بعد القبض على السيد الإيطالى « البرتوبولدونى » أكدت لهم أن فى إسرائيل عيونا مصرية تعرف كيف تتصرف . . . قالت إنهم غير مقتنعين بأن ذلك الموظف المسكين ليس عضوا فى الشبكة . . . بل إن

بعضهم يقول إنهم كانوا يشكون فيه منذ فترة ليست قصيرة ، وإنهم كانوا سيقبضون عليه لولا حرصه الشديد !

« ربما كان كذلك ياسيرينا ! »

هكذا قال الفتى فى محاولة لتهدئة أعصاب تلك السيدة الثائرة ، فجاءته صيحتها كى تضىء النور باهرا ليغمر الحقيقة التى أفزعته :

« وربما كان للأمر وجه آخر ياديفيد ! »

هتف رأفت مستوضحا :

« هل هذا الموظف من السفارديم ؟ ! »

« ها أنت ذا قد توصلت إلى لب الحقيقة ! »

قالت سيرينا هذا فهبط عليهما صمت شديد الثقل ، أشعلت هى سيجارة ثم نهضت زافرة كى تعد كأسين من الشراب حملتهما إليه وهى تقول :

« الحقيقة الآن أنهم يريدون إلقاء تبعة فشلهم على السفارديم ، حتى ولو اتهموهم بالتجسس ! »

هم الفتى بالحديث فلاحقته مؤكدة :

« إن ماوصلنى من معلومات يقول إنهم يضعون السفارديم تحت المراقبة على أمل ضبط تلك الشبكة ، بل إنهم ـ وهذا مالا شك فيه ـ مهتمون بشكل خاص بكل النازحين إلى هنا من مصر ! ! »

. . . .

. . . .

كانت مشكلة السفارديم ـ يهود الشرق ـ والاشكيناز ـ يهود الغرب ـ

ولاتزال ، من تلك المشاكل المستعصية داخل إسرائيل . . . فكل من له عينان داخل المجتمع الإسرائيلى يعرف هذه التفرقة بين يهود الشرق ويهود الغرب معرفة ليست فى حاجة إلى دليل . . . كان يهود الغرب ومازالوا حتى اليوم ـ يحتلون كل المناصب المهمة فى الدولة ، وكانت هذه المناصب حكرا على الاشكيناز دون السفارديم الذين يشعرون بأنهم يعامَلون معاملة الزنوج فى الولايات المتحدة قبل الحرب الأهلية الأمريكية . . . وكم من قصص تحكى عن كفاءات لاتعطى الفرصة رغم قدراتها لاحتلال مكانها فى المجتمع ، لا لشىء ، إلا لأن أصحابها من السفارديم . . . بين الحين والآخر كانت المشكلة تثور وتصعد إلى سطح المجتمع فتكاد تثير انقساما خطيرا ، لولا مايلجأ إليه الاشكيناز من دق طبول الخوف من الخطر الداهم المتمثل فى العرب المتوحشين الساعين إلى تدمير الوطن الموعود . . . ولقد كان كل هذا محتملا . . . أما أن يأتى ذلك اليوم الذى يلصق فيه الاشكيناز تهمة الخيانة العظمى بالسفارديم ، كى يحموا ذلك الانحلال الذى ينخر فى المجتمع وفى بنية الدولة الموعودة ، فهذا مالا يمكن احتماله !

قالت سيرينا أهارونى إنها استدعت الفتى حتى ينتبه إلى مايمكن أن تفعله تلك العصابة الحاكمة التى تضرب الآن فى كل اتجاه يوجد فيه يهودى شرقى ، وإذا كان موظف الميناء المسكين من « السفارديم » ، فإن بحثهم الآن يتركز حول النازحين من مصر بالذات ، فعليه أن يأخذ حذره !

. . . .

. . . .

ما إن وصلت سيرينا فى حديثها العصبى إلى هذا الحد حتى دق جرس الباب معلنا وصول أول ضيوف ذلك المساء القاتم . . . ولقد قال الفتى إن تلك كانت ليلة من الليالى الكئيبة التى مرت ببيت تلك السيدة التى وصلت عصبيتها إلى الذروة مع وجود ضيوف من الاشكيناز واخرين من السفارديم . . . وإن الحوار بين الجميع ـ رغم محاولاتهم كى يبدو الأمر طبيعيا ـ كانت تظلله تلك الشكوك ، بل ، ذلك العداء الكامن فى الصدور ! !

عاد الفتى فى تلك الليلة إلى بيته مثقلا بها لايطاق !

عاد إلى بيته حائرا ممزقاً خائفاًقلقا فاقدا السيطرة على مسار تفكيره الذى أشعلت فيه النار ، سيدة يحبها ويحترمها ويثق فيها اسمها : سيرينا أهارونى !

قال رأفت الهجان ـ بعد أيام قليلة من تلك الليلة ـ لحسن القطان فى روما : إنه لم يذق للنوم طعما ، وإنه ظل طوال الليل ، وحتى مطلع النهار ، جالسا فى انتظار من يدق عليه بابه ، كى يقوده إلى حبل المشنقة ! !

الفصل الخامس

نحو عالم رحيب .. ورهيب !

قال عزيز الجبالى لهيلين سمحون ، إن رأفت الهجان عاش بعد ذلك أياما كانت - بكل المعانى - حالكة السواد . . . وإن الغريب فى الأمر ، أنه عندما وصلته تلك البرقية فى صباح اليوم التالى تطلب إليه الكف تماما عن أى نشاط ، وتجميد كل حركة له أو لرجاله ، استشعر قليلا من الأمن ، لإحساسه بأن الرجال فى مصر يعيشون معه ويشعرون به ويقفون على أهبة الاستعداد لانقاذه لو أن شيئا ما حدث أو وقع . . . لكن هذا الإحساس بالأمن كان يتضاءل ساعة بعد ساعة ، مع تلك الحمى المروعة التى اجتاحت تل أبيب - والتى كانت انباؤها السرية تصل إليه تباعا - بحثا عن الجواسيس المصريين !

كانت البرقية التى وصلته - كالعادة - تتحدث عن أمور عادية تماما ، ولاتثير أى نوع من أنواع الشكوك أو الريبة ، لكنها فقط ، تضمنت اسم فتاة تدعى « روزيتا » . . . وكان ورود هذا الاسم فى أى خطاب أو برقية أو مكالمة تليفونية ، معناه أن يوقف نشاطه فورا وأن يجمده وحتى إشعار أخر .

بالرغم من هذا ، فإنه لم يشأ أن يتصل بدان رابينوفيتش أو إيزاك بن عميتاى ، كى يطلب إليهما الكف عن العمل وتجميد النشاط حتى لايثير قلقهما ، وترك الأمر للظروف .

وعنـدما جاءه إيزاك بن عميتاى بعد يومين وحاول إمداده ببعض الأخبار ، سأله الفتى إن كان قد سمع بها حوله ، فضحك إيزاك قائلا :

«أعلم كل شىء ، ولكن ، مالنا نحن والمصريين ؟!»

« وهل تستطيع الموساد ـ فى ظروف كهذه ـ أن تفرق بين هؤلاء وأولئك ؟ ! »

قالها الفتى بصرامة بعثت بالرهبة إلى نفس الرجل الذى قال :

« معك حق ولكن . . . . »

زفر رأفت زفرة من فاض به مقاطعاً :

« ياعزيزى إيزاك ، إنهم الآن يضربون على غير هدى ، وإن كنت لاتعلم فاعلم أنهم يتشككون فى كل مخلوق دون تفرقة بين هذا وذاك ، ودون النظر إلى المناصب أو العلاقات أو المكانة الاجتماعية ! »

اضطرب إيزاك بالفعل وتساءل :

« وما الذى تراه إذن ؟ ! »

فى وضوح ، ونحو الهدف مباشرة ، سار الفتى :

« أرى أن نكف تماما عن النشاط فى هذه المرحلة ، فلسنا فى حاجة إلى متاعب نحن فى غنى عنها !!»

وهكذا فهم راف سيرن إيزاك بن عميتاى ماكان عليه أن يفعله ،

فاستسلم دون تعقيب . لكن ماحدث مع سجن ألوف دان رابينوفيتش كان بالطبع مختلفا . . . فلقد جاءه الرجل منتفخ الأوداج كعادته ، كان الوقت مساء وقد خـلا المكتب من الموظفين والموظفات ، بادر الفتى بقوله :

« أعتقد أنه لابد لنا من الحديث بصراحة ووضوح أيها العزيز ديفيد ! »

« عن أى شىء يادان ؟ ! »

« ألا ترى أنه من الأصوب أن نكف قليلا عن النشاط حتى تهدأ تلك الضجة المثارة ؟ ! »

لم يشأ الفتى أن يستجيب لدان على الفور ، أدرك أنه جاء كى يطلب إليه ماكان عازما على طلبه إليه ، مال نحوه متسائلا :

« لست أدرى ما الذى تقصده بالضبط ! »

بدا الضيق على وجه دان ، صاح :

« ولكن ، لابد انك تعلم ! »

« لم لاتوضح مقصدك ؟ ! »

اعتدل دان فى جلسته قائلا :

« أنت لابد تعلم أنهم الآن فى حالة هستيرية بحثا عن أعوان المصريين هنا ، بعد هذا الإعلان عن القبض على ذلك الجاسوس الايطالى ! »

« ليس فى إسرائيل كلها من لايعلم هذه الحقيقة ! »

« أنا واثق حقا من أن أصدقاءنا لاعلاقة لهم بهذا الايطالى اللعين لكن الحذر واجب ! »

« آه . . . »

« ولو أننا كففنا فى الوقت الحاضر عن اللقاء أو تبادل المعلومات لكان هذا أكثر أمنا ! »

نهض الفتى كى يعد له كأسا وهو يقول :

« يالك من ثعلب ! »

ازداد انتفاخ أوداج العقيد الإسرائيلى وهو يضع ساقا فوق ساق :

«إنهم يضربون فى غيظ وعلى غير هدى ! »

« هل هذا استنتاج أم أنه معلومة ؟ ! »

نظر دان إلى رأفت الذى كان الآن يقدم له كأسه وهو يتساءل :

« هل تعودت منى المبالغة أو التهويل ؟ ! »

«لم أقل إنك تبالغ ! ! »

« وأنا أيضا لااستنتج ، إنها معلومات أكيدة ولاشك فيها ! »

قال رأفت إنه لم يشأ أن يسأل الرجل عن مصدر معلوماته رغم يقينه من أنه كان سيحظى بالإجابة لو سأل ، لكنه فضل أن يستمر فى لعب دور الساذج كى يحظى من الرجل بما هو أهم لديه فى تلك المرحلة . . . لاذ بالصمت وقد عاد إلى مقعده وترك الرجل يختال قائلا :

«لابد لنا أن نهدأ تماما حتى تتلاشى هذه الضجة من حولنا ! »

« إذا كان هذا هو رأيك ، فلابد أنه الصواب بعينه ! »

أصاب تقريظ الفتى وترا فى نفس الرجل فأردف :

« إن مثل هذه الأمور يجب أن تؤخذ بحذر شديد ! »

مال الفتى نحوه باسما وهو يمازحه :

« لعلك لاتعلم أنى فى بعض الأحيان أحسد العزيزة كلارا لأنها زوجتك ! »

أطلق دان ضحكة مجلجلة ، ومس تقريظ الفتى هذه المرة أشد الأوتار حساسية فى نفس الرجل ، الذى رشف من كأسه رشفة ممعنا :

« ألا تبالغ قليلا فى تقديرى ياديڤيد ؟ ! »

« ربما . . . ولكن هذا هو رأيى ، إن الاقتراب من رجل مثلك يبعث بالطمأنينة وسط هذا المجتمع الملىء بالشكوك ! »

« غير أن هناك مايجب عليك ألا تغفله إطلاقا ! »

« وماهو ؟ ! »

« علينا بطبيعة الحال أن نبقى علاقتنا الاجتماعية كما هى أمام الجميع حتى لانثير الشك ! »

« بالطبع ياعزيزى ، بالطبع ! »

هكذا هتف الفتى فى سعادة فلقد كان سجن ألوف دان رابينوفيتش يضع ـ من تلقاء نفسه ـ القواعد الصحيحة بينهما فى وضوح ، ولقد تذكر رأفت الهجان ماقاله له حسن القطان يوم التقيا فى ذلك البيت رقم ٩ شارع دوق يورك ببلدة فالكون وود بمقاطعة كنت البريطانية ، وكان يتحدث عن دان رابينوفيتش بالتحديد ، قال :

« الناس اللى زى الراجل ده يارأفت بتبقى عندهم فكرة عن الموضوع ، لانهم بالقطع بيدرسوه فى مرحلة من المراحل . . . . ولو ظهر عليه شوية تحفظ ماتقلقش ، لأنه بعد كده حايريحك فى الشغل قوى ! »

ثم . . . فلقد كان الفتى يعلم منذ لحظة دخول دان إليه فى ذلك

المساء السبب الحقيقى فى الزيارة ، والسبب الحقيقى وراء إبداء هذا الحرص بهذا الأسلوب ، وكان يدفعه ويمهد له الطريق فى أثناء الحوار ، كى يفصح عن غرضه دون حرج ، لذلك فلقد انتبهت حواسه عندما قال دان :

« ثم إن هناك أمرا أريد أن أتحدث إليك فيه ! »

ضحك رأفت رغما عنه وهو يدس يده فى جيبه صائحا :

« إن مطالب كلارا العزيزة لاتنتهى ! »

بادله سجن ألوف الضحك وهو يمد يده إلى المبلغ الذى قدمه له الفتى :

« ألا ترى أنها تستحق ذلك ؟ ! »

ولم يرد رأفت ....

وانصرف دان وكان يبدو سعيدا كل السعادة !

....

....

حملت يهوديت موردخاى ـ سكرتيرة السيد ديفيد شارل سمحون ـ برقيه وصلت إليه من باريس تطلب إليه لقاء عاجلا لمناقشة إرسال عدد من الأفواج وتحدد له موعدا قريبا ، لم تكن كلمات البرقية بالطبع تحمل نفس المعانى التى توحى بها الكلمات ، بل كانت تتحدث عن موعد عاجل فى روما . . . وبالرغم من كل ماكان يحيط رأفت الهجان ، فإنه لم يشأ أن يتصرف بتردد أو حرص قد يلفت إليه الأنظار ، بل قرر أن يتصرف ببساطة وكما تعود أن يفعل دائما فى مثل تلك الأحوال . . .

ولذلك ، فما إن قرأ البرقية حتى طلب إلى السكرتيرة أن تحجز له فى صباح اليوم التالى مقعدا على الطائرة المتجهة إلى باريس مرورا بروما . . . تمتمت يهوديت بكلمات مبهمة دفعت الفتى إلى أن يرفع رأسه إليها فإذا وجهها شاحب .

« ماذا بك ؟ ! »

« ستسافر مرة أخرى ؟ ! »

ترك مافى يده واسترخى فى مقعده باسما .

« إن السفر جزء من عملى ! »

« كما أن السهر أصبح جزءامن حياتك ! »

أربدت ملامح الفتى وهو يعتدل فى مقعده ، أردفت :

« ألا يمكنك حتى أن تراعى مشاعرى ؟ !»

«يهوديت ؟ ! ! »

هكذا هتف مستنكراً فاستطردت :

«إن المدينة كلها تتحدث عن علاقتك بكلارا رابينوفيتش ! »

« ولكنى لم أر كلارا منذ مايزيد على الشهر!»

وكان هذا حقيقيا تماما ، فمنذ عودة الفتى من امستردام وضع مع سجن ألوف دان رابينوفيتش خطة للقائهما تخضع لسرية صارمة . . . كما وضعا خطة أخرى لعلاقتهما الاجتماعية بحيث تبدو عادية تماما ولا مبالغة فيها . . . غير أن يهوديت ردت على ماقاله الفتى بصيحة مختنقة :

« أتريد منى أن أصدق هذا ؟ ! »

« لك مطلق الحرية فى أن تصدقى أو تكذبى ! »

همت بالحديث فأردف فى جفاء :

« أيهما تفضلين؟! »

تكسرت الكلمات بين شفتيها وهى تقول :

« إن هذا فوق احتمالى ! »

« فلم لاترفضين الأمر برمته ؟!»

بقدر ماكانت الجملة قاسية على الفتاة التى اصبحت مدلهة فى حبه ، بقدر ماكانت حاسمة واضحة محددة الملامح فى وضع أساس لكل شىء . . . وهكذا انسحبت يهوديت موردخاى دون كلمة أخرى ، وعاد الفتى إلى ماكان فيه من عمل ، لكنه لم يستطع الاستمرار . . . رفع رأسه وحملق فى الباب المغلق أمامه ، دهش لاتهام الناس له بأنه على علاقة بكلارا رابينوفيتش ، وهم لايعلمون أنه يعيش منذ شهور تلك القصة التى داهمته ذات مساء فأصبحت تؤرقه . . . . التقى بها فبهرته بأسلوبها وجمالها وثقافتها ووضوح الرؤية أمامها ، قاوم طويلا ذلك الإحساس الذى تسلل إليه فسيطر وتمكن . . . قاومت هى الأخرى وكانت أكثر منه صلابة فاختفت لشهور ظن خلالها أنه سينسى كل شىء ، لكنها كانت واحته وسط الجحيم الذى يعيش فيه . . . ذات يوم عادت إليه معلنة استسلامها لكنه لزم الصمت . . . كان السؤال المطروح عليه هو : هل يعيش حياته أم يعيش من أجل وطنه ؟ ! . . . حنينه إلى بيت وزوجة وولد يحمل اسمه أصبح نارا تتأجج فى جوانحه ، هو يعلم أنه يستطيع أن يجد فى كل يوم امرأة ، ولكن . . . هل يستطيع الرجل أن يجد فى العمر زوجة ؟!

زفر رأفت الهجان وكأنه يزيح بزفرته عبئا ثقيلا يجثم على صدره ، نظر إلى سماعة التليفون فجرفه الحنين إلى سماع صوتها ، حاول المقاومة لكنه لم يستطع ، رفع السماعة وأدار القرص ، ما إن جاءه صوتها حتى هتف فى شوق :

« حنه ! »

صمت لثوان قال بعدها :

« لاشىء ، فقط أردت أن أقول إنى افتقدك ! ! »

ودخلت يهوديت الغرفة لبعض عملها ، فأعاد السماعة إلى مكانها ! !

●●●

تبادل حسن القطان مع الفتى الضحكات وهو يستمع منه إلى ذلك الحوار الذى دار بينه وبين دان رابينوفيتش . . . أثنى حسن على تصرف رأفت وحرصه ، وأردف الفتى قائلا :

« بس أنا عشت أيام سوده فى إسرائيل »

« أمر طبيعى »

« لكن الراجل الطليانى ده كان بيشتغل لحسابنا حقيقى ؟ ! »

كان هذا السؤال هو أول مالفت الأنظار إلى أن رأفت الهجان بدأ يتصرف وكأنه «ضابط» فى جهاز المخابرات المصرى ، ليس السؤال نفسه هو الذى أوحى لحسن بهذا الإحساس لكنه الأسلوب الذى طرح به الفتى سؤاله ، ولم يشأ حسن القطان أن يعلق على الأمر ، أو أن

يعطيه أهمية من نوع خاص ، وإن كان قد وضع إحساسه هذا فى تقرير أرسله إلى القاهرة ، وعلى كلٍ . . . فلقد رد على سؤال الفتى بسؤال آخر :

« وده يهمك فى إيه ؟ ! »

هتف رأفت :

« إلا يهمنى فى إيه . . . إسمع ياحسن بيه . . . . »

قاطعه حسن وقد أدرك بالضبط مايريده الفتى :

« إسمع انت يارأفت ، تعالى نحسبها بشكل منطقى ! »

« إحسبها زى ما أنت عاوز ! »

« أنت يوم ماقبلت تقوم بالمهمة دى ، قبلتها على إنها فسحة ؟! »

استنكر الفتى هاتفا :

« لأ طبعا !! »

« قبلتها على أن فيها نوع من المخاطرة ؟ ! »

« بالتأكيد ! »

كان فى كلمة الفتى الأخيرة رد على كل مخاوفه وتساؤلاته ، صمت حسن القطان وهو ينظر إليه مبتسما تلك الابتسامة الموحية ، فابتسم رأفت وقد أدرك أنه وقع فى فخ المناقشة ، لكنه لم يشأ أن يستسلم فهتف :

« أنت عندك فكرة أنا عشت ، ولسه عايش لحد اللحظة دى فى إسرائيل ، أيام شكلها ايه ؟ ! »

« أقدر أتصور ! »

« يبقى لازم نشوف حل للمأزق اللى بالشكل ده ! »

« آديك قلتها بنفسك ! »

كانا الآن يتحاوران كصديقين حميمين صنعت بينهما الأيام رباطا وثيقا من المحبة والاحترام المتبادل . ورغم جموح الفتى وتمرده ، فإنه كان يعرف متى يثور ومتى يحتج ومتى يتوقف عن الثورة أو الاحتجاج . . . ولقد كانت جملته الأخيرة إيذانا ببدء مرحلة جديدة من الحوار ، راحا يدارسان الأمر معا . . . ووصل به ذلك الثعلب ، المهذب الأسلوب ، المنمق الكلمات ، الهادىء الأعصاب ، إلى ضرورة التدريب على مستويات أعلى ، حتى يستطيع أن يرقى بقدراته ويواكب عصره ويواجه المأزق ويحمى نفسه ورجاله ويتلافى الأخطاء بقدر الإمكان . . . قال الفتى إنه إن كان هناك مايجب أن يتعلمه ويتدرب عليه ، فدخل حسن فى الموضوع مباشرة عندما قال :

« علشان كده إحنا بعتنا لك ! »

« فيه حبر سرى جديد ؟ ! »

« مش بس حبر سرى ، فيه حاجات أكبر ! »

« زى إيه ؟ ! »

« خليها مفاجأة »

« امتى ؟ ! »

« يوم ١٥ فى الشهر ! »

ضم الفتى مابين حاجبيه متذكرا :

« مش ممكن تغيير الميعاد ده ؟ ! »

« ليه ؟ ! »

« لأن فيه فوج حاطلعه من إسرائيل على قبرص فى نفس اليوم ده ؟ ! »

« عز الطلب ! »

« مش فاهم ! »

« إطلع مع الفوج ده ! »

أدرك الفتى كل شيء فى لحظة ، وجم قليلا وكأنه يرفض تصديق الأمر ، ثم سأل فى شك :

« سيادتك تقصد إن المقابلة فى قبرص ؟ ! »

« بالضبط كده !! »

« على جثتى !! »

قالها رأفت الهجان بالإنجليزية كمن يريد تأكيدها ، اندفع فى الحديث قائلا إن قبرص هى المصيف المثالى بالنسبة للإسرائيليين بالذات . . . أولا : لقربها من فلسطين ، وثانيا : لرخص أسعارها الذى يتواءم مع حرص اليهودى على ألا ينفق الكثير من المال . . . قال إن شركته وحدها تعمل طوال أشهر الصيف ، وبلا انقطاع ، وعلى خط تل أبيب قبرص ، سواء بالطيران أو البحر . . . وإن تواجده فيها مع هذا الفوج بالذات الذى يضم عددا لابأس به من العلماء - ومنهم من يعتمد عليه الفتى فى تسقط الأخبار ومعرفة الأسرار - سوف يثير بالتأكيد الكثير من التساؤل لو أنه اختفى لبضعة أيام . . . و . . . و . . .

« وانا بصراحة ياحسن بيه ماتحملش فى الوقت ده بالذات أى شك أو تساؤل مهما كان صغيرّ أو بسيط !!»

«أوعى تنسى إننا مسئولين عن تأمينك ! »

« على عينى وراسى بس . . . . »

قاطعه حسن باسماً :

« وعلى كلٍ ماهو أنت حاتلاقى فى قبرص اللى ممكن تلاقيه فى أى بلد فى أوربا ! »

كان فيما قاله حسن القطان تورية دفعت الفتى إلى الصياح :

« بلاش تفهمنى غلط من فضلك ! »

وانفجر حسن فى الضحك ، ولم يملك الفتى سوى أن يبادله ضحكاته وقد سرت حمرة الخجل إلى وجهه . . . كانا الآن شديدى القرب من بعضهما البعض ، بل أصبح كل منهما يأنس إلى الآخر ويتطلع إلى لقائه . . . ساد الصمت قليلا وقد سرح الفتى فيمن تركها وراءه فى تل أبيب ، راودته نفسه أن يفاتح حسن القطان فى الأمر ، لكن شيئا غريبا منعه من البوح بسره ، كان يعرف ويدرك بل كان موقنا أن فى الكتمان خطرا قد يهدد ذات يوم حياته ، لكنه كان يعرف ويدرك ، بل كان موقنا أيضا أن فى البوح بسره مصادرة كل مايخفق من أجله قلبه !

« مالك يارأفت ؟ ! »

أدرك الفتى أن سهومه وشى به فابتعد عن الأمر متسائلا :

« وانتوا كنتوا عارفين ميعاد الفوج ده ؟ ! »

وأدرك حسن القطان بعين الثعلب الكامن فى نفسه أن الفتى يعانى من أمر يخفيه عنه ، ولم يكن فى حاجة إلى الكثير من الذكاء كى يخمن

هذا الأمر ، فضل ألا يضغط عليه وأن يتركه حتى يبوح بها فى نفسه .

رد عليه متسائلا :

« ودى تفرق كتير؟ ! »

قفز الفتى ناهضا فى احتجاج باذلا أقصى طاقته فى تغيير مجرى أفكاره :

« مالقيتوش غير قبرص ؟ ! »

« والميعاد يوم ١٥ فى الشهر ! »

« ماهو . . . . »

« وانت حاتنزل فى نفس اللوكاندة اللى بتنزل فيها كل مرة ! »

التفت إليه الفتى فأردف :

« لوكاندة الخواجه بيمبو ! »

« وعارفين اللوكاندة كمان ؟ ! »

بالرغم منه ضحك حسن هاتفا :

« ما انت اللى قايل لى عليها !»

عاد رأفت إلى مقعده ، أشعل سيجارة ، سأل فى استسلام :

« ومين اللى أنا حاقابله هناك ؟ ! »

« السيد نديم هاشم »

ضحك الفتى وهو يقول ممازحا :

« كده يبقى معقول شوية ! ! »

قال هذا ، واتخذ قراره بأن يفاتح نديم فى الأمر .

●●●

عندما وصل رجل الأعمال المصرى « زكى سويلم » إلى قبرص ، راح يسعى منذ لحظة وصوله باحثا عن ڤيللا منعزلة تصلح للاصطياف لمدة أسبوعين . . . كان أمامه أن يستقل السيارة من العاصمة « نيقوسيا » إلى واحدة من مدينتين ساحليتين هما « لارناكا » أو « ليماسول » . . . حيث يمتلىء الشاطىء بمثل تلك البيوت الصغيرة المنعزلة والمعدة للاصطياف . . . غير أنه وجد نفسه ـ حتى من قبل وصوله إلى قبرص ـ أمام بضعة محاذير ، أهمها : إن المصطافين يفضلون بالقطع أن يكونوا بالقرب من الشاطىء . . . وهكذا ، فلابد أنهم ، حتى ولو كان مركز إقامتهم فى قبرص هو « نيقوسيا » ، سينتقلون إلى الشاطىء : إلى لارناكا أو ليماسول . . . . ولأن السيد سويلم كان يبحث عن بيت ذى مواصفات خاصة ، فلقد فضل أن يبقى فى العاصمة القبرصية ليوم أو يومين لعله يجد فيها ضالته التى من أجلها جاء خصيصا إلى هذه الجزيرة !

كانت فنادق قبرص فى تلك السنوات متواضعة بحق ، هى أقرب إلى «البنسيونات » منها إلى الفنادق ، كما كان أصحابها ـ فى الغالب ـ ممن عاشوا فى مصر زمنا فاتقنوا العربية . . . وبالرغم من هذا فلقد أراد السيد سويلم أن يبقى غرضه سرا فلا يسأل أحدا ، ترك نفسه للظروف حتى يحيط الأمر بأكبر قدر من الكتمان . . . فى الرابعة عصر نفس يوم وصوله غادر فندقه الصغير ينشد التجوال فى شوارع المدينة ، وراح يتسكع هنا وهناك بحثاً عن منزل يصلح للاصطياف . . . تصادف أن مر أمامه أتوبيس لم يكن يعرف وجهته ، ولكن . . . لأن الأتوبيس كان ذا طبيعة خاصة ، فلقد وجده السيد سويلم من ذلك الطراز العتيق

المكشوف من كل جوانبه ، الموضوع بدل سقفه مظلة من القماش بما يجعل الركوب فيه ، مع بطئه ، لمن لم يتعود هذا النوع من المواصلات ، نزهة بحق ! .

بدا السيد سويلم للناظر ـ إنْ كان هناك من يتتبع خطاه ـ وكأن رؤيته للأتوبيس قد استخفته ، فلقد قفز إليه فجأة بادى المرح . . . ولقد وجد نفسه ـ بعد أقل من ربع ساعة ـ خارج نيقوسيا . . . شق الأتوبيس طريقه وسط الجبال التى كستها الخضرة ، علم أن هذا طريق دائرى سوف يعود به إلى نيقوسيا مرة أخرى ، بعد المرور ببضع قرى جبلية تتناثر بيوتها البيضاء اللون وسط خضرة الجبال كالحمائم الرابضة . . . عندما لمح السيد سويلم مايشبه كشكا للمثلجات عند مشارف قرية صغيرة ، هرول إلى السائق طالبا إليه التوقف فتوقف وهو يقول بإنجليزية لابأس بها أنه سيعود إلى نفس المكان بعد ساعة . . . مضى الأتوبيس فى طريقه ووقف الرجل يتلفت حوله . . . بالقرب من كشك المثلجات كانت هناك بضعة بيوت متناثرة متباعدة عند قمة الجبل ، حول الكشك كانت ثمة مجموعة من الشباب راحوا يتسامرون ويثرثرون ، أوصله إليهم مدق مترب ضيق راح يتسلقه فى نشاط رغم وعورته ، طلب زجاجة مثلجة فأسرع أحدهم بتقديمها له دون أن يكف عن الحديث أو يلتفت إليه أحد وكأن وجوده ـ وهو الغريب ـ أمر طبيعى تماما ، أخذ يرشف من الزجاجة على مهل متحينا الفرصة وسط ثرثرة الشباب كى يطرح سؤاله المنشود :

« هل أستطيع أن أجد هنا بيتاً للإيجار ؟ ! »

كان الجو فوق الجبال رائعا ، هبت نسمة رطبة فملأ زكى سويلم رئتيه بالهواء ، راح عقله يعمل بسرعة ، وهو ـ عندما خرج للتريض فى شوارع نيقوسيا ـ لم يتصور أنه سوف يجد ضالته بهذه السهولة ، كان المكان مثاليا لإقامة أصدقائه بعيداً عن أعين المتطفلين ، الذين حتى إذا ما أرادوا التلصص فلسوف يكتشف أمرهم بسهولة ، وهكذا اتخذ قراره وهو يحدد الجهات الأربع الأصلية مستعينا بموقع الشمس الغاربة فى الأفق حاسبا ـ على وجه التقريب ـ زاوية ميل الجبال نحو وطنه . . .

ما إن سأل سؤاله حتى صاح أحد الشبان ـ دون رد عليه ـ بحنجرة جبلية شديدة القوة مناديا على كهل سرعان ماظهر من أحد بيوت القرية مهرولا . . . رحب الكهل بالضيف وهو يسأله عن بغيته ، ومالبث أن صحبه فى جولة طافا فيها بعدد من تلك البيوت المتباعدة عند قمة الجبل ، بدا للضيف القادم واحد منها مناسبا من كل الوجوه ، قبل أن تنقضى ثلاثون دقيقة كان قد دفع العربون وتسلم إيصالا ، قال للسمسار الكهل إن أصدقاءه سوف يأتون فى اليوم الخامس عشر من الشهر ، وإن عليه أن يسلمهم الڤيللا إذا ماقدموا له الإيصال ، قبل أن يغادرالرجل سأله إن كانت هناك وسيلة أخرى للمواصلات غير الأتوبيس فقال السمسار غامزا بعينه إن سيارات الأجرة لاينقطع مرورها ، فعلى طول الطريق ـ خارج نيقوسيا ـ بيوت من هذا النوع الذى يفضله المصطافون ذوو المزاج الخاص بعيدا عن العيون ، هرول زكى سويلم هابطا الجبل وكان السمسار على حق ، فلم تمض دقائق قليلة حتى استوقف سيّارة أجرة أقلته إلى قلب المدينة حيث أرسل برقية قال فيها إن مهمته انتهت وإنه عائد فى اليوم التالى ، لكنه تلقى بعد

ساعتين ـ وكان فى الفندق ـ مكالمة تليفونية عرف منها أن ردا على برقيته قد وصل ، عندما تسلم الرد وجدهم يطلبون إليه التوجه إلى روما بدلا من القاهرة !

. . . .

. . . .

فى روما ألتقى السيد زكى سويلم ـ الذى لم يكن سوى عزيز الجبالى ! ـ بنديم هاشم وحسن القطان . . . تم اللقاء مصادفة ـ !!! ـ فى ڤيللا بورجيزى قبل الغروب بقليل ، تصافحوا بحرارة وتبادلوا الأسئلة ، ثم جلسوا على أحد المقاعد المتناثرة فى الحديقة وقد استخفهم المرح لذلك اللقاء غير المنتظر . . . راحوا يتجاذبون أطراف الحديث ضاحكين . . . فى براءة سأل عزيز صديقه حسن عما حدث فى لقائه الأخير مع « صاحبنا » !

أخذ حسن يقص ـ بالتفصيل ـ كل ماتم بينه وبين رأفت الهجان ، بعد أن انتهى من حديثه سأله نديم هاشم :

« أنت قلت له أنه حايلاقى فى قبرص اللى بيلاقيه فى أوربا ؟!»

«أ يوه ! »

« يبقى يقابلنى ! ! »

وضج الثلاثة بالضحك !

ما إن هدأت الضحكات حتى قال حسن وقد اتخذت نبرته سمة جدية واضحة :

« بس فيه حاجة متغيرة فى رأفت ! »

فى لهفة سأل عزيز :

« حاجة زى إيه ؟ ! »

« بيتهيأ لى أنه بيحب ! ! »

سأله نديم :

« هو قال لك ؟ ! »

« كان عاوز يقول لى ، إنما مقدرش !»

هز نديم رأسه وقد وصلته رسالة صديقه وزميله ، أدرك على الفور أن مهمة أخرى قد ألقيت على عاتقه مع هذا الفتى الذى كان يتحول بين يديه إلى كنز لايقدر بمال . . . عندما جاء دور عزيز الجبالى فى الحديث كان يمسك فى يده فرعا صغيراً سقط من شجرة ، راح يخطط به فوق الأرض ـ أمام الاثنين وفى حديقة عامة ـ شارحا مكان البيت الذى أستأجره وعنوانه وكيفية الوصول إليه بالأتوبيس أو السيارة الأجرة ، ذاكرا اسم السمسار الكهل . . . أخرج الإيصال وسلمه إلى نديم ، مضت ساعة أو أقل قليلا ثم انفض الصحاب كل إلى مقصد . . . نديم إلى الفندق حيث سيكون فى انتظار تحديد لقائه بخالد عز العرب عالم الاتصالات اللاسلكية الفذ ، وحسن إلى حيث يربض متربصا للأحداث متعاملا معها . . . أما عزيز الجبالى فبرغم الرسالة التى وصلته من شريف والى على لسان نديم هاشم بأنه فى حاجة ماسة إلى إجازة بعد أربع سنوات أو يزيد قليلا قضاها فى هذا الجهاز دون يوم واحد للراحة ، فإنه رأى أن بلاده تدفع الكثير ، وهو ليس على استعداد لكى يحملها ، فى إجازته ، قرشا واحدا ، فلقد اتخذ قراره بالعودة إلى مصر فى اليوم التالى مباشرة !!

●●●

قبل ظهر اليوم الرابع عشر من أغسطس عام ١٩٦٢ وصل نديم هاشم إلى نيقوسيا قادما من روما ، كان جواز سفره يحمل اسم « محمود بسيم » ، وأمام الوظيفة كتبت كلمة « محام » . . . توجه نديم إلى فندق « بيمبو » بناء على توصية من صديق مصرى تعود أن ينزل فى هذا الفندق كلما زار قبرص . . . أما خالد عز العرب فلقد وصل إلى نفس المطار فى المساء ، والغريب فى أمر هذا الرجل ، ان جواز سفره كان يحمل اسمه الحقيقى . أما المهنة ، فلقد كُتبَ أمامها : أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة .

وعلى عكس نديم ، فقد إستقل خالد سيارة أجرة من المطار ، وأعطى السائق عنوان تلك الڤيللا المنعزلة خارج نيقوسيا ، بعد أقل من نصف ساعة كان يدخل إلى الڤيللا بصحبة السمسار الكهل . . . قدم له خالد ذلك الإيصال الذى سلمه هو لعزيز من قبل ، حاول أن يدفع له أجر الليلة الزائدة ، فلقد وصل قبل الموعد بيوم ولكن الرجل رفض باصرار . . . وكانت الڤيللا جاهزة تماما لاستقبال الضيوف !

. . . .

. . . .

كان فندق بيمبو متوسطا فى كل شىء شأنه شأن أغلب فنادق قبرص فى تلك الأيام . . . فهو عبارة عن بيت صغير مكون من طابقين ، يحتوى الطابق العلوى على ست غرف يتوسطها بهو صغير وضعت فيه بضعة مقاعد متواضعة ومائدة صغيرة ، أما الطابق السفلى فلم يكن فيه سوى أربع غرف فقط ، بينما احتل المطبخ والادارة بقية المساحة . . .

خلف الفندق كان ثمة قطعة أرض فضاء ، أقام فوقها بيمبو عددا لابأس به من الشاليهات الخشبية المتواضعة . . . واستطاع هذا الشاب القبرصى مع زوجته كريستينا أن يجعلا من فندقهما مستعمرة مستقلة داخل العاصمة القبرصية ، يتعامل فيها النزلاء معهما تعامل أصحاب البيت ، فيطلبون مايعن لهم من أصناف الطعام أو الخدمات فتلبى طلباتهم بترحاب ، أو ينشب بينهم حوار مرح يتبادلون فيه الاتهامات حول الخدمة فى الفنادق الأخرى ، ورخص الأسعار ، وقيمة الجنية القبرصى بالنسبة للاسترلينى أو الدولار ! !

كان بيمبو شابا مرحاً التقى بزوجته كريستينا منذ سنوات فتلاقت احلامهما ، بدآ معا - وحتى قبل الزواج - مشروعهما هذا الذى يفضله السائحون من ذوى الدخول المتوسطة على أى مكان آخر فى قبرص لما يجدون فيه من دفء المعاملة وحسن الضيافة . . . عندما وصل نديم إلى الفندق وطلب غرفة ، اعتذرت السيدة كريستينا بالرغم من التوصية التى حملها الرجل من صديقه ، سألها نديم بشكل عابر أن كان الفندق كامل العدد ، فقالت ان الشاليهات الخلفية فقط هى المحجوزة ، منذ الغد ، ولمدة أسبوعين .

« فما هى المشكلة إذن ؟ ! »

« استمع إلىَّ ياصديقى ، أنا استطيع أن اعطيك غرفة ولكنى لست راغبة فى أن أسبب لك أى نوع من الحرج ! ! »

« حرج ؟ ! »

« نعم . . . . ففى الغد سيصل فوج إسرائيلى كى يحتل الشاليهات كلها زيادة على غرفة فى الطابق العلوى ! ! »

« هل سيشاركنى أحد غرفتى ؟»
هكذا سألها نديم باسماً فهتفت :
« بالطبع لا !»
« إذن فلتعطينى غرفة ولكن بشرط !»
« شرط ؟!»
« ألاَّ تذكرى لاصدقائك الاسرائيليين شيئاً عنى حتى لا تسببى لهم حرجاً !! »
« أو . كى !!»
هكذا قالت كريستينا باسمة وهى ترمق ذلك الشاب المصرى بنظرة إعجـاب ، لم تجد أمام لا مبالاته بوجود إسرائيليين فى الفندق ـ على عكس الآخرين من المصريين أو العرب الذين تعودوا النزول فى فندقها الصغير ـ بدا من إعطائه الغرفة . . . سألته وهى تدون اسمه وبيانات جواز سفره :
« كم يوماً ستبقى معنا سيد بسيم ؟!»
« ليلتين لا أكثر !»
« هى إجازة قصيرة إذن ؟!»
ولم يرد السيد بسيم ، لكنه تناول منها المفتاح وترك حقيبته للخادم كى يحملها إلى الطابق العلوى .
هكذا سارت الأمور فى يسر .
وهكذا انقضى اليوم الرابع عشر من اغسطس عام ١٩٦٢
وفى صباح يوم ١٥ أغسطس هبط السيد محمود بسيم من غرفته إلى

قاعة الطعام التى كانت خالية تماماً من النزلاء ، تناول إفطاره مبكراً ، ثم غادر الفندق بعدها مباشرة . . . لكنه عاد عند الظهر فتناول غداءه وطلب إلى الادارة الا يزعجه أحـد لأنه فى حاجة ماسة إلى النوم ثم اختفى فى غرفته .
كان هذا اليوم هو موعد وصول الفوج السياحى الاسرائيلى الذى تـولى شركة « ماجى تورز » أمره ، ولذلك . . . فلقد انهمك بيمبو وكريستينا ومن معهم من الموظفين والخدم فى الاستعدادات لاستقبال هذا الفوج ، وكانوا ـ فى نفس الوقت ـ سعداء لأنهم سيلتقون بواحد من أهم عملائهم ، وهو السيد ديڤيد شارل سمحون صاحب ومدير شركة ماجى تورز . . . كان ديڤيد بمرحه وخفة ظله قد استطاع أن يوطد علاقته بصاحبى الفندق ، لذا ، فلقد كانا دائماً ما يحجزان له افخر غرفة لديهما ، ويستضيفانه ـ مهما بلغ عدد الأيام ـ بلا مقابل .
قبل الغروب بقليل . وصل الفوج السياحى الاسرائيلى !
وسرعان ما نشط بيمبو وزوجته وهما يرحبان بالضيوف ترحيباً حاراً ، ومـا أن مضت ساعة حتى كانت الشاليهات قد تحولت إلى مستعمرة يهودية مستقلة تماماً !!

« قال الفتى فيها بعـد ، إن أكثر مالفت نظره فى عمله بالسياحة فى إسرائيل ، هو رغبة اليهود الكامنة فى الانعـزال عن المجتمع المحيط بهم ، وانهم كانوا يسعدون سعادة بالغة فى شاليهات فندق بيمبو بالذات عن بقية الفنـدق ولذلك ، فلقد اتفق مع بيمبو أن يقيم لهم غرفة طعام تتوسط الشاليهات كلما كان هناك

عدد كاف من السائحين . . . وفى تلك المرة بالذات حدث هذا ، فلم يلتق اى من أفراد الفوج بأى من نزلاء الفندق طوال إقامتهم فى قبرص !»

أفراد الفوج بأى من نزلاء الفندق طوال إقامتهم فى قبرص !»

عندما وصل الفوج الاسرائيلى فى الاتوبيس السياحى الذى اقلهم من المطار ، كان نديم هاشم يقف خلف زجاج نافذة غرفته المظلمة ، ولقد لمح الفتى وهو يغادر السيارة ، وشاهد الحرارة التى استقبله بها بيمبو وكريستينا بل وموظفوا الفندق وخدمه .

كان الفوج يضم مجموعة من الاصدقاء الذين يكونون إحدى حلقات الفتى المدنية . . . ولقد عرفوا منه ـ منذ البداية ـ انه لن يمكث معهم سوى ليلة واحدة ثم يختفى حيث يجب الا يعرف أحد ، فهو الأخر فى حاجة إلى إجازة مثلهم . . . ولقد تغامز الرفاق مدركين أن الفتى يريد الهرب منهم إلى موعد غرامى فتمنوا له وقتاً طيباً !

عندما صعد أحد الخدم حاملاً حقيبة السيد سمحون إلى تلك الغرفة المختارة ، كان ديڤيد فى بهو الفندق يشرف على إنهاء الاجراءات الخاصة بفوجه . ويشرف بنفسه على توزيع الشاليهات وتلبية رغبات العملاء . . . لم ينتبه أحد إلى غياب الخادم فى الطابق العلوى لدقائق زادت قليلاً عما كان مقدراً له ، ولم يعرف احد ـ بالطبع ـ أن الخادم عندما عاد ، كان يحتفظ فى جيبه بمبلغ محترم من المال ، وسر لم يكن من السهل أن يبوح به .

صعد الفتى إلى غرفته وكانت الساعة تشير إلى النصف بعد التاسعة ، كان يبدو متعبا بعد يوم شاق بدأ مع التباشير الأولى

للصباح ، أسر إلى بيمبو انه سيغادرهم فى اليوم التالى ولن يعود قبل عشرة أيام كما أوصاه بنزلائه واتفق معه على ترتيبات الرحلات والزيارات . . . ما إن دخل غرفته حتى خلع ملابسه والقى بنفسه فوق الفراش شبه عار تاركا للراحة سبيلا إلى جسده المنهك بعد يوم حافل سبقته ليلة لم يذق فيها طعم النوم !

كان رأفت الهجان فى حاجة إلى أن يختلى بنفسه ، هكذا تعود كلما كان مقبلا على خطوة مهمة فى حياته السرية تلك ، وإذا كان حسن القطان قد ضرب له موعدا فى الخامس عشر من أغسطس فى فندق « بيمبو » هذا ، فلقد كان عليه الآن ألا يفعل شيئا سوى الانتظار ، تذكر انه سوف يلتقى بنديم هاشم فاستعاد ذكرى لقائه الأول معه فى ميناء جنوا ، فابتسم . . . جاء نديم فى تلك الليلة من حيث لم يتوقع . . أعطاه مالم يخطر له ببال ، اقترب منه حتى أصبح وثيق الصلة به . . . كان مادربه نديم عليه فى المرة الماضية دروعا شدت من أزره وحمته . . . ترى ، ماالذى سوف يدربه عليه هذه المرة ؟ !

لاشك أن هناك حبرا سريا جديدا ، ولكن : هل يحتاج الحبر السرى إلى التدريب لعشرة أيام ؟ ! . . . سؤال كان يلح عليه منذ فارق حسن القطان دون أن يعثر له على جواب . . . للمرة المائة راح يلوح فى ذهنه ذلك الحوار الذى انتوى أن يديره مع نديم حول حبه هذا الذى داهمه فلم يستطع منه فكاكا . . . هل يحذره ويرفض ويضع فى طريقه العراقيل وينبهه إلى الأخطار ، أم سيكون للأمر وجه آخر بعد أن أثبت لهم أنه قادر على إدارة الأمور ؟ !

تسللت ذكريات الليلة الماضية وسط غابة أفكاره فإذا عطرها يملأ أنفه حاملا إياه على أجنحة سعادة بلا حدود . . . هل قدر له أن يعيش حياته بلا بيت أو زوجة أو ولد ؟ ! . . . تخطى الثلاثين منذ سنوات وأيام العمر تحمله مسرعة نحو الكهولة التى قد لايصيبها بضربة حظ عاثر فمتى يصبح أبا ؟ ! . . . ترقرق وجهها المغسول بالحب فى خياله فأغمض عينيه مستسلما لحنانها الدافق وهى تحمل رأسه بين يديها هامسة بأعذب ماسمع من كلمات الحب . . . هل يحبها حقا أم أنه الشوق إلى أسرة يريدها بعد أن حرمه قدره من الأسرة . . . ترك الشكوك وارتمى فى احضان الذكريات فإذا قلبه يخفق بعنف ، وإذا الخدر يسرى إلى جسده ، وإذا النوم يثقل جفونه لكنه يغالبه متشبثا باحلامه . . . وإذا هو يتأرجح بين يقظة ونوم ، وإذا صوت مفتاح يعالج باب الغرفة . . الباب هائل عملاق ، المكان فسيح فسيح ، والجدران عالية كالاسوار ، وهو وحيد يبحث عن مخرج ومازال صوت المفتاح فى ثقب الباب يطارده ، حاول أن يسأل ، أن ينهض ، أن يصرخ . . . لكن صوته ضاع ، ضاع فى جنبات المكان بلا صدى ، الظلام كثيف ، قلبه يركض فى عنف ، الباب يفتح كى ينفذ منه عملاق تطاول قامته السماء .

« ديڤيد ! »

هب جالسا فى الفراش ، جسده ثقيل ، جسده عار تغرقه قطرات عرق كالسيل .

« من أنت ؟ ! »

قالها بالعبرية بعد أن كاد لسانه ينطقها بالعربية . . . أغلق الباب

فساد الظلام مرة أخرى . . . أنفاس العملاق تقترب فى فحيح مفزع ، خطواته بلا صوت فكأنه يسبح فى الهواء .

« من أنت ؟ ! »

« ديڤيد ! »

« ماذا تريد ؟ ! »

تفصد العرق من جسده امطارا ، حط العملاق إلى جواره على حافة الفراش . . . لا . . . لن يستسلم . . . امتدت يده إلى زر النور فى لهفة لكن يد العملاق كانت أسبق إلى يده فقبضت عليها بأصابع من فولاذ .

« ديڤيد . . . ديڤيد ! »

فى ظلال الغرفة ، وعلى أضواء الطريق الشاحبة المتسللة عبر النافذة ، رأى وجه نديم هاشم الذى كان يهزه فى رفق .

« رأفت . . . انت بتحلم ؟ ! »

وهوى قلبه - فور سماعه لأسمه - بين ضلوعه ، وارتخت عضلاته ، والقى بنفسه من جديد فوق الفراش وكانت أنفاسه تتردد بصوت مسموع .

« رأفت ! »

« أهلا سيد نديم ! »

دس نديم فى يده ورقة وهو يهمس :

« بكره تنتظرنى الساعة ثمانية فى العنوان ده ! »

قبضت يد الفتى على الورقة فى حرص .

« وإذا ماعديتش عليك لحد ثمانية وخمسة . حاتلاقى أوضة فى

لوكاندة « بلاك هورس » محجوزة باسمك . . . انزل فيها لحد ما اتصل بيك تانى ! »

هز الفتى رأسه إيجابا فنهض نديم متسائلا :

« سمعتنى كويس يارأفت ؟ ! »

« سمعتك كويس ! »

وسبح الشبح العملاق فى هواء الغرفة حتى غادرها ، وظل الفتى جامداً فى مكانه ، يقاوم رغبة عنيفة فى البكاء !

●●●

مالت الشمس نحو الغروب فخرج خالد عز العرب إلى شرفة الڤيللا وراح يرقب الطبيعة من حوله ، كان كل شىء ساكناً سكوناً مدهشاً . اجال بصره فى الجبال المتماوجة بلا نهاية ، راقب فلاحاً يصعد الجبل فوق حماره إلى حيث تربض . القرية غير بعيدة ، شقشق طائر مر بجواره ثم اختفى وسط الفضاء الرحب . . . كان خالد متوتراً فى انتظار الضيف القادم ، فى الصباح زاره نديم ومكث لساعة احتسيا فيها كوبين من الشاى المعد على الطريقة المصرية ، بدا خالد عز العرب وكأنه طفل فى انتظار اللقاء ببطل أسطورى ، أمطر نديم بالأسئلة حتى صاح هذا .

« جرى إيه يادكتور ، كلها كام ساعة وحا تزهق منه !»

صاح أحد الشبان المحيطين بكشك المثلجات فانتبه خالد من استغراقه ، مرت فتاة قبرصية عن بعد فى استقامة ذكرته بنساء الصعيد فى مصر ، عندما عرف بالفخ الذى نصبه عزيز الجبالى ـ هكذا قال ـ ثار ثورة عارمة وأعلن الرفض والتمرد معاً .

بداية . . .

لابد لنا أن نؤكد هنا اننا نغفل لقب دكتور مضافاً إلى اسم الرجل احتراماً لرغبته . . . ذلك أن خالداً الذى حصل على الدكتوراة ـ بامتياز مع مرتبة الشرف ـ من إحدى جامعات أوربا ، كان دائماً مايغضب إذا ما ذكر اسمه مشفوعاً بلقب « دكتور » . . . فهذا اللقب ، لايطلق فى الخارج ـ أو عند المتحضرين كما يحلو له أن يطلق على شعوب الدول المتقدمة ـ الا على الأطباء فقط . . . وكان دائماً مايقول ان الذين يطلقون لقب دكتور على من يحصل على تلك الدرجة العلمية ، هم من أبناء الدول المتخلفة ـ كان خالد عز العرب يرفض تسمية تلك الدول بالنامية لأنها تسمية غير دقيقة علمياً ـ من الأسويين والإفريقيين ومواطنى أمريكا الجنوبية الذين تبهرهم الألقاب حتى ولو كانوا لايستحقونها . . . ثم إننا نرى اننا حتى ولو أضفنا هذا اللقب إلى إسم الرجل ، فلن نضيف شيئاً إلى قيمته ، فلقد كان راهباً بحق فى محراب هذا العلم الذى تفوق فيه تفوقاً وضعه فى مصاف افذاذ العلماء فى العالم ، ضارباً عرض الحائط بكل ماقد يصيبه من شهرة أومال إذا ماخرج ببحوثه إلى العلن ، مكتفياً بأنه هاهنا ـ فى تلك المعامل وهذا الجهاز ـ يقوم بواجب على ارفع قدر من السمو ، فوق انه يجد ـ وهذا مهم للغاية ـ كل مايحتاج إليه من معدات ومواد وكان يكفى أن يطلبها حتى يجدها تحت تصرفه ، دونما حاجة إلى روتين أو بيروقراطية تقتل الحماس وتضيع الوقت فيما لا طائل وراءه . . . وأنه ها هنا أيضاً يجد فرصته كامله فى أن يصول ويجول فى عالمه اللامحدود ، عالم الاتصالات

اللاسلكية ، والتى كانت تلك السنوات ـ على حد تعبيره ـ هى بداية عصر « ثورة الموجات » التى قد تنتهى بنقل الانسان من مكان إلى مكان دون حاجة إلى مركبات تحمله .

احتل خالد فى جهاز المخابرات المصرى مكانة خاصة ، واعطيت له الحرية كاملة فى إنشاء هذا القسم وتنظيمه واختيار المعاونين ، الذين كانوا بطبيعة الحال من نفس نوعيته وأسلوبه فى التفكير ، والذين تحولوا إلى أسرة شديدة الترابط ، تبدو الأفكار فى عقولهم وكأنها تسبح فى اوان مستطرقة . فإذا العلم ينساب من العقول إلى العقول وإذا لقاح الأفكار ينتج معجزات قدر لها الا تخرج إلى العلن . . . وإذا تلك العقول تزداد مع الأيام خصبا ، وتفرز عطاء ، وتصبح مثار إعجاب العدو قبل الصديق !

لذلك ، فما إن علم خالد برغبة عزيز فى أن يقوم بتدريب الفتى على الاستقبال اللاسلكى حتى ثار ثورة حقيقية ، فمثل هذه المهمة من الممكن أن يقوم بها أى فنى أو ضابط لاسلكى ، واعتبر خالد عز العرب أن هذا التكليف مهين له . . . إن عمله الحقيقى هنا بين أجهزته المعقدة والتى ترسل أصواتا ، وهى ، بين يديه ويدى معاونيه وتلاميذه ، تتطور يوما بعد يوم ، تسابق الزمن أمام عدو لا يألو جهدا فى التقدم واكتشاف كل جديد من الممكن اكتشافه !

كادت أزمة حقيقية تتحكم فى الموقف ، لولا أن استدعى شريف والى عزيز الجبالى إلى مكتبه :

« عزيز ، انت دلوقت خلقت لنا أزمة مع الأستاذ ده ، وانت اللى لازم تحلها ! ! »

أدرك عزيز منذ الوهلة الأولى أن مهمته ليست سهلة ، وهو عندما اقترح اسم خالد عز العرب كى يدرب الفتى كان يحقق له إحدى أمانيه التى طالما سمعه يتحدث عنها ، كما كان هدفه الأسمى هو سرعة تدريب الفتى فى أقصر وقت ممكن ، والوصول به إلى أرقى مستوى من الممكن أن يصل إليه فى أيام قليلة . . . ذلك أن غياب رأفت الهجان عن إسرائيل فى الشهور الأخيرة كان قد تكرر وتعددت سفراته . . . حقا ، كانَ لكل سفرية غطاؤها المقنع ، وحقا أن المواطن الإسرائيلى كان من حقه أن يسافر وقتما يشاء ويعود عندما يريد ، إلا أن حاجز الأمن كانت له حدود يجب التوقف عندها . . . كان هذا سلاحا فى يده قرر أن يشرعه فى وجه هذا العالم العصبى المزاج ، بالإضافة إلى تلك الرغبة الدفينة عند خالد ، فى رؤية واحد من هؤلاء الذين يتحدث إليهم من خلف أستار كثيفة من السرية والكتمان .

قال عزيز الجبالى مبتسما :

« انت تعرف الشخص اللى أنت حاتدربه ده يبقى إيه ؟ ! »

« أولا : أنا مش حادربه ، ثانيا : أنا مش عاوز أعزف عنه حاجة ! »

« لاحظ إنه شخص غير عادى ! »

أفلح عزيز فى استفزازه ، فلقد سأله فى استخفاف :

« غير عادى بالنسبة لمين ؟ ! »

« مش فاهم ؟ ! »

« بالنسبة لكم ، والا هو اللى مش عادى فعلا ؟ ! »

« الإتنين !! »